الحياة القبلية

إن كانت الكثير من الدراسات السابقة ركزت على الاستفادة من الشعر العربي، جاهليه ونبطيه، كمرجع تاريخي وجغرافي فإن هذه الدراسة، كما بيّنا في المقدمة، تطمح إلى أن تبين أهميته كمصدر للدراسات الثقافية والاجتماعية. ولا بد من التأكيد على أهمية الربط بين الدراسات الثقافية والدراسات الأدبية لأن كلا منهما يشكل مادة تساعد على فهم الآخر وتَمَثُّله على صورته الصحيحة. لذا لا ينبغي التوقف في مقارناتنا بين الشعر الجاهلي والشعر النبطي عند حد المقارنة الأدبية واللغوية، بل لا بد أن نتعدى ذلك لعقد مقارنات بين ثقافة العصر الجاهلي وثقافة العصور المتأخرة للتأكيد على الاستمرارية الثقافية والاجتماعية في الجزيرة العربية. دراسة مجتمع البدو وثقافتهم ولغتهم وأدبهم هي وسيلة من أهم الوسائل لفهم حقيقة الأدب الجاهلي والحياة الجاهلية. النتائج التي نتوصل إليها عبر هذا الطريق ستهدينا وتنير لنا سبل البحث عما كانت عليه الحياة العربية في الجاهلية وصدر الإسلام.

ملكية الأرض

يعترف عرب الجزيرة بثلاثة أصناف من الثروة هي المال وتعني النقود، والملك وتعني الأرض، والحلال وتعني الأنعام، وخصوصا الإبل والضأن والذي يتضح من اسمها (حلال وهي المضادة للحرام) أنها أسمى وأشرف أنواع الملكية، ومن هنا كانت البداوة وحياة الرعي رمزا للنبل والأصالة والشرف (Marx 1967: 53). وما يهمنا في هذا المقام هو الملكية الثابتة المتمثلة في ملكية الأرض نظرا لأن توريث الأرض والحق في استخدامها هو الأكثر من بين أصناف الملكية ارتباطا بالنسب والانتماء العشائري. نجد مثلا أن الأقدمية في التواجد على الأرض وإحيائها وسكناها واستغلالها جيلا بعد جيل تعطي نوعا من حق الملكية لها لذا تحرص القبائل شبه المستقرة على الاحتفاظ بتسلسل أنسابها وصولا إلى الجد الذي انتقل إلى تلك البقعة واشتراها أو أحياها أو حفر فيها بئرا أو غرس نخلا أو أثلا وذلك من أجل إثبات أولويتها ودعم حجتها في ملكية الأرض، خصوصا في غياب صكوك التملك الموثقة من سلطة مخولة.

يفترض الاقتصاديون أن البشرية في مراحل نشأتها الأولى لم تعرف الملكية الخاصة وكانت خيرات الأرض ملكا مشاعا للجميع. ويضيفون إن مصدر قيمة أي سلعة يتحدد فيما بُذل في إنتاجها من عمل وجهد إنساني. العمل الإنساني هو الذي يحول الثروات من حالتها الطبيعية ليجعل منها سلعا وطيّبات ينتفع بها الإنسان، أي يضفي عليها قيمة، ومن يضفي قيمة على الشيء يكتسب بذلك الحق ليتملّكه، فهذا حقه الطبيعي. فكل شيء يحصل عليه الإنسان بجهده الخاص وعمل يده يصبح ملكا

له لوحده وله حق التصرف المطلق فيه. وعلى هذا الأساس فإن الأرض تصبح ملكا لمن أحيا مواتها فزرعها أو بنى عليها أو شيد عليها منشآت من أي نوع. وحيث أن البدو لا يزرعون ولا يبنون بيوتا ولا يشيدون أي نوع من المنشآت، فعلى أي أساس يحق لهم ادعاء ملكية الأرض، وما هو الشكل الذي تتخذه هذه الملكية؟

لكل قبيلة بدوية ديرة شاسعة الأطراف تجول فيها حيث تجد ما تحتاجه من آبار للسقيا وفلاة للمرعى وأماكن احتطاب وصيد. وكل ما في ديرة القبيلة من ماء ومرعى وثروات طبيعية ملك مشاع للجميع ينتفعون به وهم مستعدون دوما لحمايته والدفاع عنه. ولا يسمح أبناء القبيلة لغيرهم أن يتعدّى على ديرتهم أو يستفيد من مواردها الطبيعية أو يمر منها إلا بإذن منهم ومقابل دفع الخاوة لهم بالنسبة للقبائل الضعيفة أو دفع الرتاعة بالنسبة للقبائل القوية، وسوف نفصل القول في هذه الأمور في الفصل الذي نتحدث فيه عن **سلوم العرب**. وامتلاك القبيلة لديرتها أحد مؤشرات القوة والشرف ونبل الأصل، لأن القبائل الضعيفة، أو من يسمون **عوج دَخّان** لا يملكون ديرة تخصهم بل هم دائما تربطهم علاقة سيد ومسود مع قبيلة قوية يدفعون لها الخاوة مقابل السماح لهم بالرعي في ديرتهم والاستسقاء من آبارهم. وتنطبع في ذهن ابن القبيلة ما تتميز به ديرتها من معالم جغرافية ومظاهر تضاريسية ومزايا طبيعية وما تحتويه من تلاع وشعاب ووديان ورياض وفياض وجبال وطرق صحراوية، كما يعرف حدودها ومناطق تماسها الخطرة مع القبائل المجاورة. والكثير من القبائل يتخذون من ديرتهم عزوة لهم مثل البعيّر الذين يعتزون بالشعبة فيقولون: خيال الشعبتين. وبحكم حركية الحياة البدوية تنشأ بين البدوي وبين الجغرافيا علاقة خاصة يعكسها موروثه اللغوي والشعري كما ترد في مواضيع مثل الرحلة أو الاستغاثة، كما سنبينه بتفصيل أكثر حينما نتحدث عن قهر الصحراء في الفصل الأخير.

وتترك القبيلة بصمتها على ديرتها من خلال الأسماء التي تطلقها على بعض المواقع تخليدا لحدث مهم وقع في ذلك المكان، وبهذه الطريقة يتم الربط بين تاريخ القبيلة وجغرافيا الديرة وتضاريسها. وتتغير أسماء هذه الأماكن تبعا لتعاقب القبائل وتعاقب الأحداث عليها. من الأمثلة على هذه الأسماء "ريع المْغَنّي" وهو منطقة فاصلة تقع بين ديار شمر وديار عنزة، فإذا عبره غزاة عنزة متجهين إلى ديارهم بعد إغارتهم على شمر أمِنوا فرفعوا عقيرتهم بالغناء، وكذا الحال مع غزاة شمر، وهو الذي يقول فيه فهيد الفواري:

قالوا بواعه والمصيّد خصيبِ وتسابقن ريع المغني جناديب

وهناك "أبرق المكلا" الذي تغير اسمه إلى "ابرق الشيوخ" بعدما قُتل عنده عقاب وحجاب أبناء سعدون العواجي. وهناك "خل الشويهري" وهو طريق ابتدعه هذلول الشويهري في غزواته على عنزة فسُمي باسمه وذلك بعد أن منعه طلال ابن رمال من

سلوك الخل الذي يمر من جبه لأن ابن رمال كان قد تعهد لابن شعلان أن لا يسمح لغزاة شمر من المرور عن طريق خل جبة. وهناك "الوقّادية" سميت بذلك لأن قاعد ابن مجلاد حينما قدم من الجوف في غزوته على الوطيفي عند جبه طلب من عبد له أن يتوقف عند كثيب رملي مرتفع "نازيه" بالقرب من عُليم الظما في منتصف الطريق ليوقد نارا تهتدي بها فلول الغزو بعد إنجاز مهمتهم:

> الوقاديه هذي ما اسمه الوقاديه هكالحين، هي هذي نازيةٍ طويله، طعس رمل، عند عليم الظما اللي يْذَكّر. قاعد ابن مجلاد والغزو الي معه أخَذَوا معهم بعض الرويّ وْخَلّوا بْعَضَه الاخر عند العبد وقالوا: عاد انت يالعبد خلك وقّاد، لا تموت النار الليلة الفلانيه، اللي ورا الابْلِه[1]، لا تموت النار لما نجيك، خلوه يقعد بمحلُّه هو والرويّ.

وهناك "المقناة" (اشتقاقها من الاقتناء) قريبا من جبة كان غزاة شمر إذا وصلوها أمنوا وتأكدوا من أن القوم لن يتمكنوا من استنقاذ ما نهبوه منهم ودفعوا بكسبهم إلى جبه ثم أعادوا الكرة غازين مرة أخرى. يقول نايف ابن طعيسان:

> المقناة هذاتي عند جبه. المردود اوّل هذي سنجارة والرمال يوم تغزي مع جارد ومع هجهوج ومع طلال ومع ابن رخيص ومع العْقِدا. إلى وصلوا المقناة عرفوا ان فودهم، المِسْوَق، سلم زبّنوه على اهلهم وردّوا من عند المقناة غزوٍ مرّةٍ ثانيه. هاللي عاد يقول:
>
> قم نشّد المقناة كم جاه مردود كم مِسْوَقٍ مع خلّها رعّجَنّه
> ياما تمثناها من الهِجن والفود اقفاي واقبالٍ وهن يرهجنه

لكن ارتباطات البدوي مع الأرض تشبه ارتباطاته مع الحلفاء، فهي ارتباطات ظرفية ومرنة لديها القابلية لإعادة التشكيل حسب الظروف ومتطلبات البقاء، خصوصا وأن ثروة البدوي حلال متحرك يستطيع نقله معه أينما ذهب، وما يهمه ليس الأرض ذاتها وإنما ما على وجه الأرض من ماء ومرعى له ولحلاله ومن موارد طبيعية أخرى يمكنه الانتفاع بها. وأرض القبيلة ملك مشاع لجميع أبناء القبيلة بحيث لا يحق لأحد منهم أن يدعي ملكيتها أو يتصرف بمفرده ببيع أي جزء منها. والبدوي بذلك يختلف عن الفلاح الذي تتطلب حياته الاستقرار ويلزمه تملك الأرض لاستصلاحها وزراعتها وإقامة منشآت عليها للري والسكن وما شابه ذلك من أملاك ثابتة وما تنتجه الأرض من غلال ونخيل يستحيل نقلها. فالأرض بالنسبة للفلاح هي الملك، أما بالنسبة للبدوي فهي مجرد أماكن للرعي والاحتطاب والسقيا وحيثما وجدت هذا الموارد تذهب القبيلة لترعى أنعامها إن لم يعترض سبيلها قبيلة أقوى منها تصدها عنها. فقد تعاقبت القبائل من بني خالد إلى الرولة وأخيرا شمر على مناطق اللبة والحزول في شمال الجزيرة، وذلك لوفرة مائها وطيب مرعاها. ويقول دونالد كول عن قبيلة المرة أنهم هاجروا من منطقة نجران منذ ما يقرب من مئتي سنة وعبروا الربع الخالي ليستقر جماعة المرضّف في يبرين وجماعة ابن شريم في الأحساء (Cole 1975: 99). نظرا للنزاعات القبلية التي لا تنقطع وتفاوت حظوظ القبائل

---

(١) في تعداد تتابع لليالي يقولون "الليله" وما بعدها "القابله" وما بعد ذلك "الابلِه".

بين القوة والضعف بسبب القحط والأوبئة وما شاكل ذلك فإن القبائل في تموج مستمر. وسوف نلاحظ بوضوح هذه التموجات القبلية لو قارنا مثلا بين ما كتبه ياقوت الحموي في كتابه **معجم البلدان** عن سكنى بعض القرى والمواقع ومن آلت إليه سكناها حينما جاء ابن بليهد والعبودي وابن جنيدل وابن خميس وغيرهم من المتأخرين ليكتبوا عن جغرافيتها وسكانها وتواريخها في القرن العشرين. أما القبائل القوية التي تمتلك ديارا شاسعة تتضمن بيئات متنوعة وموارد طبيعية مختلفة تكفي لإعاشتها فإنها تبقى تجول في ديرتها ولا تغادرها. هؤلاء كانوا في الجاهلية يسمون أرحاء العرب "وإنما سميت هذه أرحاء لأنها أحرزت دورا ومياها لم يكن للعرب مثلها ولم تبرح من أوطانها ودارت في دورها كالأرحاء على أقطابها." (ابن عبدر به ١٩٨٣/ ٣: ٣٣٥). وقد لا تتمكن القبيلة من الاستقرار في ديرتها إلا لعدد من الأجيال فتضطر للجلاء عنها أو يأتي من هو أقوى منها ويزيحها عنها، ويقول في أمثالهم: **نجد لمن طالت قناته**. وقد تحدث الشيخ محمد بن بليهد باستفاضة عن هذا الموضوع (١٩٧٢/٢: ١٢٧-٣١، ٥: ٢٢٩). يقول ابن بليهد في حديثه عن موضع أبو دخن:

> وموقعه بين الشرف والشريفي وسط نجد، بين النشاش وجبل ثهلان، وهو في بلاد بني نمير في الجاهلية وفي صدر الإسلام ثم جاءت بنو لام واحتلتها فلا أعلم عن مدة إقامتهم فيها ثم جاءت عنزة واحتلتها ومما يؤيد هذا الاحتلال تملكهم بعض البقاع مثل (الحناكية) لابن هذال و(الحائط) لابن مجلاد و(عقلة الصقور) والصقور بطن من عنزة و(البحيرة) من آبار ظرية (كذا!) لابن بحير العنزي، ومواكر الطيور التي في جبال نجد عليها وسوم عنزة ثم جاءت مطير فأخرجت عنزة ومدت جرانها في نجد، ثم جاءت قحطان وكان بينهم وبين مطير حروب وأخرجتهم قحطان، ومما يؤيد ما ذهبنا إليه قول الشاعرة المشهورة مويضي البرازية حين قالت من الشعر النبطي:
>
> نجد حمیناها من اولاد وایل — والیوم عدونا سكن وادي الراك
> فامّا احتمیناها بحد السلایل — لا بد نعطى الشاة ذولا وذولاك
>
> ثم جاءت عتيبة وأخرجت قحطان من نجد وبقوا فيها إلى هذا العهد (بليهد ١٩٧٢/٥: ٢٢٩).

وفي تغلب عتيبة على نجد يقول ضيف الله العفار ابن حميد:

ذولا نصالحهم وذولا لنا قوم — واكوان يشبع غِبّها كل حايم
لما سكنّا نجد من غير معلوم — بصولات تلقى به صفا الجو غايم
يانجد ما والله نزلناك بسلوم — ولا انتي بورث جدودنا اللي قدايم
خذناك عقب مدارك العمر والسوم — سومٍ يْخَسّر لابسات اللثايم

وغالبا ما تسجل القبائل تاريخ هجراتها الجماعية في صيغة أساطير يتناقلونها صاغرا عن كابر مثل أسطورة سد مأرب أو ما يحاك من أساطير عن نزوح طي إلى الجبلين (علي ١٩٩٣/٤: ٤٥٠) ومن أقدم الرحلات المشهورة رحلة بني هلال عن نجد وتلتها بعد ذلك بعدة قرون رحلة الضياغم. وتروي الأساطير حكايات عن رحيل بهيج عن عقدة وقصائد لابنته تتوجد على أملاكهم ونخيلهم هناك. ومن المتوارث عند الرواة

أن عبدة هم الذين أزاحوا سنبس الطائية عن بلادهم في الجبلين، كما تقول القصيدة: **قبلك بهيج حدّروه السناعيس// من عقده اللي ما يزحزح قناها**. ومن الرحلات المشهورة في العصور المتأخرة رحيل فارس الجربا عن نجد وكذلك رحيل العمارات من عنزة التي سجلها عبد ابن هذال في قصيدته المشهورة حيث أنه لم يتمكن من الرحيل معهم.

علاقة البدوي بالأرض علاقة ظرفية وتتخذ ملكيته لها أشكالا مختلفة تناولنا بعضا منها بشيء من التفصيل في مواقع أخرى من هذا الكتاب ويمكن إجمالها فيما يلي، علما بأن هذا الموضوع موضوع شائك يحتاج إلى دراسة أوفى وأعمق. ما يتعلق بالمراعي والفلوات الشاسعة التي تقع في ديرة القبيلة مثل الحماد واللبة والخنفة والحزول وما إلى ذلك فإن القبائل تتناوب عليها بحكم قوتها وضعفها، فأي قبيلة تستشعر في نفسها القوة قد تسبق جارتها وتسرّح أذوادها في تلك المفالي، ولكنها بفعلها هذا تعرض أذوادها للنهب من القبائل المجاورة. وقد تدعي أحد بطون القبيلة أو أحد أفخاذها ملكية بعض الآبار أو الجيان (حفر ابن رخيص، مثلا)، وهذا في حد ذاته أحد المؤشرات على أن استغلال المفالي والمراعي المحيطة بهذه الآبار والجيان سيكون مقتصرا على ذلك الفخذ أو البطن الذي يملك الآبار نظرا لتوفر الماء لهم، أو أن لهم حق الأولية، على الأقل، في استغلال المراعي المحيطة بآبارهم (Marx 1967: 89). أي أن ملكية مصادر الماء تسبق ملكية الأرض والمراعي التي أصلا لا يمكن الاستفادة منها بدون الماء (Smith 1972: 104). ولا بأس من الإشارة هنا إلى أن البدو أنفسهم نادرا ما يحفرون الآبار لأن حفرها في المناطق الصخرية يحتاج إلى معدات ومهارات لا يمتلكونها، وحفرها في المناطق الرملية والرخوة يحتاج إلي عمليات طَيّ أيضا لا يحسنونها. ما يحدث هو أنهم في الغالب يجدون آبارا قديمة مدفونة، ويسمونها جاهلية، فيعيدون حفرها.

يمكن القول باختصار إنه في غياب السلطة الشرعية التي تحمي حقوق التملك وتضمن الالتزام بعقود نقل الملكية وصكوك البيع والشراء تصبح القوة هي الضمانة الوحيدة للاحتفاظ بملكية الأرض، أو كما يقولون بخشم البارود. فالأرض لك ما لم يغلبك عليها أو يسبقك إليها من هو أقوى منك. والأرض في ذلك لا تختلف عن أذواد الإبل وغيرها من ممتلكات البدوي التي لا يستطيع الاحتفاظ بها ما لم تتوفر له القوة اللازمة. ومن الطبيعي أن القبيلة الأقوى، بعدد رجالها وخيولها وإبلها وما تملكه من عدة وعتاد، سوف تستحوذ على الأراضي الأفضل والغنية بمياهها ومراعيها الخصبة ومواردها الطبيعية الأخرى، وقد تجتاح ديار قبيلة أضعف منها إذا لم تتوفر المراعي في ديارها. وسوف نعود إلى هذا الموضوع حينما نتحدث عن علاقات القبائل بعضها ببعض في الفصل الذي نتناول فيه سلوم العرب. كذلك لو تغيبت القبيلة أو أبعدت عن ديرتها، فقد تحتلها قبيلة أخرى أثناء فترة غيابها. يقول مبيريك

التنباوي ينخى الطواله ويحثهم على العودة إلى ديارهم بعد أن نزلوها العواجيه:

يادار نزّال الغَـــبـــيّـــه عَنِك غـــاب تعطّريّ لرْحَـــيّلٍ هـو وســـعـــدون
انخى هل الهـدلا ليـا صـار ضَـبـضـاب اللـي علـى كـل المراجـل يـعـــيّـــون

وأحيانا تكون المفالي مملوكة إسميا لهذه القبيلة أو تلك، كأن تدعي قبيلة الروله أن منطقة الحماد لها، لكن الروله لو أخلوا المنطقة لسبب أو لآخر فإن قبيلة أخرى، كالشرارات مثلا، قد تستغل الفرصة وتسرح أذوادها هناك. وهناك أيضا إمكانية الرعي في مراعي قبيلة أخرى مقابل دفع الرتاعه وما شابهها من الأعراف التي سنفصل القول فيها في الفصل الذي نتحدث فيه عن سلوم العرب. ولكن ما دمنا بصدد الحديث عن طبيعة ملكية الأرض في المجتمع القبلي، فلعله من المناسب أن نشير هنا إلى أنه لولا أن ديرة القبيلة ملك مشاع لجميع أفرادها لما أمكن تطبيق الممارسات المتعلقة بأمور مثل الرتاعه أو تعليق العاني أوقود الشاة أو الخاوه لأن هذه اتفاقات فردية تتم بين طرفين من قبيلتين مختلفتين يُسمح بموجبها أن يتنقل الطرف الأجنبي أو أن يرعى أنعامه أينما شاء في أرض القبيلة ويسقيها من آبارها. فلو كانت ديرة القبيلة قطع عقارية كل قطعة منها مملوكة لشخص محدد لما أمكن لمن يسوق الشاة أو الرتاعة أو الخاوة أن يمر من أيٍّ من هذه القطع أو أن يرعى ماشيته فيها بدون إذن من مالكها تحديدا. قارن بين هذا الوضع وبين ملكية الفلاحين في القرى للأراضي التي تقع عليها مزارعهم حيث لا يمكن لأي واحد من الفلاحين أن يعقد بمفرده اتفاقا مع طرف آخر يسري على جميع الفلاحين، إلا في حال حصوله على تفويض صريح من كل واحد منهم.

ومناطق التماس التي تقع على الحدود بين ديار قبيلتين متجاورتين تسمى الخوف أو المخافه أو الحف،وتسمى القبيلة المجاورة حفيف وأكثر الصدامات بين القبائل عادة تقع على هذه المنطقة، خصوصا إذا كانت غنية بموارد المياه والكلأ، كما كان يحدث بين شمر والعواجية من ولد سليمان من عنزة على بيضا نثيل. يقول عبدالله ابن سبيل يصف الركائب التي تحمل رسالته الشعرية إلى فيحان ابن زريبان:

الى حـصل بين الحـفـيـفين غـارات يـرعـن زهـر مـــــا لاق في كـل وادي
مـصـيـافـهن كـبـشـان للبـدو مـشـهـاة لـى كَنّ مـــزن الصـيـف بـقـران حـادي

وإذا أرادت القبيلة تسريح أذوادها في الروضات والفياض التي تقع على الحدود بينهم وبين الأعداء فلا بد أن تصطحبها، إضافة إلى الرعاة، قوة قادرة على الدفاع عنها، أو ما يسمون جنب أو صنم، لأنه ليست من مسؤولية الرعاة الأجراء الدفاع عن الأذواد، فهذه مهمة أبناء القبيلة أنفسهم، كما في قول عقاب العواجي الذي يتعهد بحماية أذواد قبيلته ضد فرسان شمر مثل الحدب والفواري:

أنا جنبـهـا يم شـحـو السناعـيس أجنب لهـا عن الحـدب والفـواري
انا جنب شـقح البكار المعـابيس عـمـارنا عند العـشـاير عـواري

على جـــوادٍ مـــا غـــيـــاها هلابيس ... من ســـاس خـــيل مـــدوّسين المحـــاري
تـهـــوي اهواي مـــشـــوّهات القـــرانيس ... ان طالعن من بِعْـد جـــول الحـــبـــاري
عـــابينهـــا لعـدوان وفـــهـــيـد وجـــريس ... فِـــرَّيس يرمـــون العـــشـــا للضـــواري
ان جـــا نـهـــار فـــيـــه جـــدع الملابيس ... والعـــمـــر يرخص بين بايع وشـــاري
في مـعـتلجـهن حـاضـرٍ حـضـرة ابليس ... والمنـع مـــا لـه في هكـاليـــوم طاري
نبي نطارد كـــاســـبين النوامـــيس ... خـــيـــالـهـم مـــا هو عن الموت داري
فـــريس باللقـــوات وعـــيـــال فـــريس ... وعـــوق العـــديم اللي بدمّـــه يثـــاري
من دمـــهم نروي حـــدود العـــوابيس ... وبايماننا حـدب السـيـوف الهـواري
بْشِلْفٍ ثْوَرَّد والنمش له تضـــاريس ... بركـونهن تسـمع حـســاس المثـاري

وبالإضـافـة إلى المراعي والفلوات، قـد تقع في أرض القـبـيلة أمـلاك ثابتـة مـثل المزارع والنخيل التي يقوم الأجراء والعبيد بفلاحتها على أن يشاركوا في الغلة أبناء القبيلة التي تدعي ملكية الأرض مثل ما كان يشارك أهالي خيبر مثلا منتوجات مزارعهم مع الفقرا من المنابهه والايدا من ولد علي، أو مثلما كان الحال بالنسبة للنخاولة مع قبيلة حرب في منطقة المدينة، أو بالنسبة لبعض القرى في وادي الدواسر الذين يدفعون للقبيلة نصيبا من غلة الأرض بحكم أن ملكية الأرض تؤول للقبيلة وأيضا بحكم أن القبيلة تكف أذاها عنهم وتتكفل بحمايتهم من القبائل الأخرى. ولا تتخلى القبيلة عن ملكية الأرض في مثل هذه الحالة حتى لو هاجرت إلى مناطق نائية وجاءت قبيلة أخرى واحتلت الديرة التي تقع هذه القرى داخلها. وهناك من يسمون القُدمِيّه وهم حضر من أصول قبلية تختلف عن القبيلة التي تدعي ملكية الأرض، وهؤلاء يفلحون الأرض ويتشاركون في غلتها مع أبناء القبيلة التي تدعي ملكيتها مثلما كان عليه الوضع مثلا بالنسبة للحضر من بني تميم في قرى الجبلين. فقرية الحفير مملوكة لابن ثنيان من الزميل وقدّم فيها المفيد من بني تميم، ولما حاولوا أن يستقلوا بملكية القرية أجلاهم عنها فذهبوا إلى قرية السبعان التي كان يدعي ملكيتها ابن طواله من الاسلم. وفي مثل هذه الحالة يمكن أن تؤول ملكية الأرض إلى الفلاحين المقيمين عليها وتصبح لهم لو أن القبيلة التي تدعي ملكية الديرة اضطرت للهجرة وأخلت ديرتها التي تقع فيها هذه القرى. وهناك القرى التي يفلحها حضر مستقرون من نفس القبيلة التي تجول في الديرة مثل موقق وجبه وقنا وام القلبان في الجبلين والنفود. ومن المحتمل أن أهل هذه القرى لم يكونوا أصلا من قبيلة الغفيله لكنهم انضموا لها بالحلف والولاء بعد أن احتلت أراضيهم، لأننا بالرغم من انتساب هؤلاء الحضر المستقرين للغفيله نجد أن تسلسل نسبهم للجد الذي تنتمي له عشيرة الغفيله والرمال مُبهم وغير واضح. وربما أن هذا ما يفسر التوتر والنزاع بين أهالي جبة بقيادة أميرهم مصيخ ابن فرحان ومبارك الخطيب مع جارد ابن رمال شيخ بادية الرمال، وكذلك الخلاف بين ما إذا كان ابن رمال هو شيخ عموم قبيلة الغفيلة أم

هو ابن بشيّر أمير قرية موقق. انتماء هؤلاء الحضر الحقيقي أو المصطنع لقبيلة سنجارة التي تجول في تلك المناطق يعفيهم من مشاركة أبناء عمهم من البدو في غلة فلائحهم، لكن لو اضطرت القبيلة إلى الجلاء عن ديرتها واحتلتها قبيلة أخرى فإن الحضر المستقرون يبقون في قراهم يفلحون ويزرعون لكن القبيلة الوافدة سوف تفرض عليهم العشور. فحينما كانت قبيلة عنزة تتجول في المناطق المحيطة بقرية سميرا لم يكن أهالي سميرا، بحكم أنهم هم أيضا ينتمون لعنزه، يدفعون عشورا للقبيلة. ولكن بعدما تحولت قبيلة عنزة عن المنطقة واحتلتها قبيلة الأسلم اضطر أهالي سميرا لمشاركة الوافدين الجدد غلتهم وصاروا يدفعون لهم ما يسمونه غروبيّه.

وأخيرا هناك الشعاب الخصبة التي تكثر فيها المياه وأشجار النخيل البعلية التي تسقيها مياه الأمطار، وهذه ملك للبدو من أبناء القبيلة الذين يحضرون إليها ويقيمون فيها وقت جني الرطب في فصل الصيف، وتكثر مثل هذه الشعاب في المناطق الجبلية مثل جبل رمان وجبل العصام الذي تقطن جزءا منه قبيلة الخرصة وأجأ الذي تكثر في شماليه الشعاب مثل ثْوارِن والعاجزه وشوط التي تمتلكها مختلف فروع قبيلة الزميل بينما تمتلك الأسلم الجزء الجنوبي منه وتمتلك وسطه عبده.

وقد تضطر القبيلة للجلاء عن ديرتها أو تتركها طوعا بحثا عن مراعي أفضل لأنعامها، لكنها مع ذلك تحتفظ بحقها وملكيتها في الأملاك الثابتة مثل النخيل أو مواكر الطيور أو ما تأخذه من عشور على من يفلحون أرضها أو الخاوات التي كانت تدفعها لهم القبائل التي تطلب حمايتهم، كما حصل مع بعض فروع قبيلة شمر التي تركت منطقة الجبلين وارتحلت إلى مناطق الفرات وبلاد ما بين النهرين. وإذا أراد الشيخ أن يرتحل عن ديرته قد يفوّض أناسا من قبيلته ممن لا يرغبون في الرحيل لاستلام هذه المخصصات، كما حدث حينما رحل الجربان إلى العراق فقد وزعوا ما كانوا يستلمونه من خاوات أو ما كان لهم من شعاب وأودية فيها نخيل إلى أبناء عمهم الذين فضلوا البقاء على الرحيل. لكن لو طالت مدة غياب القبيلة عن ديرتها فإن ملكية هذه الأشياء تُنسى بالتقادم وتؤول إلى غيرهم. وهذه الحكاية رواها لي دبيس ابن مهلهل ابن علوي عن جماعته الدغيرات حيث أنه بعد مدة من رحيلهم عن بلادهم في منطقة الجبلين إلى جزيرة الفرات جاءهم وهم في سنجار من أخبرهم أن هناك من استولى على أراضيهم الزراعية في منطقة جو واستغلها بدون إذن منهم فعزم بضعة رجال منهم على الرجوع إلى منطقة الجبلين لتحرير أرضهم ثم عادوا من حيث أتوا:

> هكالوقت جَوّ يجيرونه الدغيرات عن الاجناب، سنة بوجه العليان وسنة بوجه الحسينه وسنة بوجه التريبان، كل فخذ له سنه، يفكّونه، يفكّون جو، ديرتهم، نخل بالضلع، جوٍّ بين حيّه وعقده –اللي دغر به علي اللي سمي علي على شانه الدغيري– قالوا جتنا قصيده مزروع جو يسوّدون على العلوي معهم جد ابوي. قال مغير ابن غازي: فَرْشَة جو لكم يالعلوي انتم والسعيّد وحنا يالغازي

ما لنا به شيّ. رَحَل. وش معي منكم يالعلوي والسعيد؟ يقوله شلاش. قالوا: معك كلنا. وهم يجونك. ويرقون على الضلع. يوم جوه يا مير زارعينه الحضر اهل قفار. ويْسَطّون باللي هم يْسَطّون ويذبّحون المعاويد ويشلّقون الدلِي وقطّعوا العده ورْثَّعوا بهم وصوّبوا رجال او رجالين.
قال شلاش ابن سعيد:

يادارنا يامـــال نَوّ السـحـــابِ غـــر المزون اللي تســقّي مـــغـــانيك
نجـــيك من سنجـــار فـــوق الركـــاب مـــا ينشكي همك على غـــيـــر اهاليك
يادار لو حنا بعـــيـــدٍ غـــيـــاب لازم على كـــور المواجـــيف ناتيك
ناتي على حـــيـــلٍ ســـواة الذياب عـــيـــرات يقطعن الفـــيـــافي بتـــفنيك
القـــرم يشـــرف للنضـــا كل نابي والعـــفن يامنبـــوزة الورك يتـــويك

الحل والترحال

في فصل الصيف تتجمع القبيلة وتنزل، "تقطن"، حول آبارها التي تقع عادة في منخفض منبسط وفسيح يسمونه **جو** يكون شكله عادة شبه دائري وتتراوح مساحة قطره من كيلومتر واحد إلى أربعة كيلومترات. وتحيط بالجو مرتفعات تحميه من هبوب الرياح الشديدة والعجاج وأرضه رملية ونظيفة. وفي أسفل نقطة في الجو تتناثر الآبار التي يتراوح عددها من الخمس إلى الخمسين. تبدأ أيام المقاطين مع بداية الصيف أو، كما يقولون، مع **الكنّه** حينما يكتن نجم الثريا ويغيب فلا يرى في السماء ليلا، حينما تهب رياح الهيف الحارة وتلهب الأرض فتجف الغدران والخباري ويتحول العشب إلى حميس يابس، ولذلك يحددون بداية هذه الفترة بقولهم "إلى صرّم **العود**، أو **طقّة العود** لأن الشجيرات والحشائش تصبح هشيما يابسا تأخذ العود منها وتكسره بين أصابعك بسهولة محدثا صوتا عند الكسر، "يطقّ". مع نهاية موسم الأمطار يبدأ وجه الصحراء يشحب ويكفهر ويغطيه السراب والعجاج والغبار وتثور العواصف وتقسو الطبيعة على الإنسان والحيوان. لا يستطيع البدوي في الصيف أن يجتزئ بحليب الإبل عن الماء الذي يصبح بحاجة إليه كل يوم، وتحتاج إليه إبله كل ثلاثة أيام.

القطين أو النزل هو أكبر وحدة تجمع قبلي، وهو السائد في القيظ، يليه **النجع** وأصغرها **الفريق**، وهو التنظيم السائد أيام الربيع وموسم الأمطار. يبدأ موسم الأمطار في الجزيرة العربية بعد طلوع نجم سهيل من الشرق قبل طلوع الشمس، ويقع ذلك في نهاية شهر سبتمبر وبداية أكتوبر. وأمطار هذه الفترة تسمى الوسم، لأنها تسم الأرض بالنبات في بقع متناثرة ولا يغطي وجه الأرض كله، مثله في ذلك مثل وسم الدابة الذي لا يشمل كامل بدنها. بعد ظهور سهيل وانتهاء فصل الصيف يتفكك القطين ويتقسم إلى نجوع صغيرة تتفرق في ديرة القبيلة وتتوغل بعيدا في الصحراء، "تِحُوْل"، وتذهب في اتجاهات مختلفة تتبع مساقط الغيث ومنابت الكلأ وتبحث عن المرعى لإبلها. وما هو متوفر في **البَرّ** من ماء ومرعى لا يسمح أن يزيد

حجم الفريق عن حد معين ولا أن يلبث في المكان الواحد لمدة طويلة. لذلك لا يستقر الفريق بل هو في حالة انتجاع مستمر وترحال لا يتوقف بحثا عن المراعي الجيدة. وخلال تجوالهم في ديرتهم تتجمع هذه النجوع وتتفرق وتكبر وتصغر حسب وفرة الماء والمرعى وحسب فصول السنة. وعلى خلاف القطين، تبنى بيوت الفريق متباعدة بعض الشيء ليحصل كل صاحب بيت على مساحة كافية يرعى فيها إبله غير بعيد عن بيته، لكن البيوت قريبة بما يكفي لاستمرار الزيارات والتواصل بين أصحابها، ومد يد العون لبعضهم البعض وقت الحاجة. أما المسافة بين كل فريق وآخر فلا تزيد عن مسيرة يوم للراجل. ولذلك حينما يتعرض فريق للهجوم فإن الفزوع من النجوع المحيطة تصل في نفس النهار.

الانتجاع يعني التنقل الدائب بحثا عن المرعى. فحينما تنضب المراعي في مكان ما تضطر الجماعة إلى الانتقال إلى مكان آخر. لذا تفضل هذه الجماعات أن تبقي فقط على الحد الأدنى من الأدوات الضرورية. والتي تستطيع أن تحملها معها أينما ذهبت دون أن تعيق حركتها. هذا النمط المعيشي الذي يتسم بحياة الحل والترحال وعدم الاستقرار يجعل متطلبات الحياة عموما بسيطة وقليلة؛ خصوصا وأن البدو كانوا لا يملكون وسائل للنقل عدا قوة الإنسان والحيوان. وتنقّل النجوع يحكمه قانون تضاؤل العائد، كما سبق وأن بينا، بمعنى أنه إذا نقص عائد المراعي عن حد لا يتناسب مع الجهد المبذول فلا بد من الانتقال إلى مكان آخر تتوفر فيه مصادر الرعي بكمية أكبر. وفي الوقت نفسه يحاول كل فرد أن يقتصر على امتلاك الحد الأدنى من المتاع الشخصي الذي يستطيع حمله معه في أي لحظة ولا يعيقه عن الترحال.

وإذا أرادت العشيرة أن ترحل "تِشِدّ" تقوم النساء بتقويض البيوت وطيها وتحميلها مع كل ما تملكه العائلة من أثاث ومؤونة على جمال قوية ومدربة يسمونها زَمِل أو مظاهير، وهي كلمة مشتقة من ظهر الدابة التي يُحمل عليها المتاع وأثاث البيوت، أو الرِّحْلِه وهي كلمة مشتقة من الارتحال. والجمال أقدر على الحمل الثقيل من النوق. ويدرب قسم من الزمل على حمل الهوادج المظللة التي تستكن بها النساء مع أطفالهن. وتعتني البدوية بهودجها الذي يسترها عن عيون الناس ويقيها حرارة الشمس وتزينه بريش النعام وجلود الغزلان ذات اللون البرتقالي الباهت وأقمشة وخيوط مختلفة الألوان وترصعه بالمرايا الصغيرة ومختلف الزخارف والأصداف التي تعكس أشعة الشمس وتتلامع مع حركة الهودج. ويسمى الهودج عند بعض القبائل المكسور، وهو مصنوع من أعواد الأثل والرمان الطرية. أما ما تركبه نساء الشيوخ فهو أكبر حجما وأفخر صنعا ويسمى الظله، وجمعها ظْلَل. ولا يزال البدو يستعملون كلمة ظعن وأظعان وظعون لكن كلمة الظعينة اختفت وحلت محلها كلمة المظهور التي

تشير إلى ذلك الجمع المتحرك من النساء والأطفال والبيوت المحملة على ظهور الإبل. وفي تحركه من منزل إلى آخر يكون المظهور عرضة للخطر من الغزاة والركبان الذين يتربصون حول موارد المياه والطرق الوعرة وثنايا الجبال يتحينون الفرص للانقضاض على أي غنيمة يسوقها لهم القدر. ولحماية المظهور يتقدمه أو يحف به السلف الذي يتكون من مجموعة من فتيان القبيلة وفرسانها الملثمين يعتلون المطايا النجيبة التي علقت في أعناقها أجراس الماو التى تصدر منها أصوات مجلجلة ويستجنب كل منهم فرسه التي يعدها ليقفز عليها في أي لحظة يسمع صوت الصارخ والمستغيث (Musil 1927: 8, 313). وكلمة "السلف" بهذا المعنى من الكلمات التي يقول شارح المفضليات إنها لم ترد في المعاجم لكنها وردت في الشعر الجاهلي، كما في قول المخبل السعدي:

ولقد تحل بها الرباب لها ... سلفٌ يفل عدوها فدخم

ويقول الجميح:

لا تسقني إن لم أُزِر سَحَرا ... غطفان موكب جحفل دهم
مُجْرٍ يغص به الفضاء له ... سلف يمور عجاجه فدخم

ويثبت الفرسان بواريدهم على رحالهم ويتشحون بسيوفهم ويحملون بأيديهم الرماح التي يزينها ريش النعام والسلاسل التي تجلجل على وقع خطوات الفرس. ومن المواضيع المفضلة لدى الشعراء وصف الظعينة وهي تبين حينما تعلو النجاد وتختفي حينما تهبط الوهاد أمام الشاعر الذي يعتلي قمة عالية يشاهد حبيبته تقوض بيتها لترحل مع عشيرتها. ثم يرسم منظر القبيلة المرتحلة بقضها وقضيضها في موكب احتفالي ضخم ومبهر، بما يصحب ذلك من جلبة وضوضاء يختلط فيها الصوت القريب بالبعيد وصوت الحادي مع المنادي وصوت الإنسان مع الحيوان. تحف بهذا التجمع البشري المتحرك قطعان الماشية من الإبل والشاء برغائها وثغائها وتسد الأفق على مد النظر. ويعتلي شيوخ القبيلة وأعيانها الركائب النجيبة بأعناقها الطويلة الممدودة وقوائمها الرشيقة وما يزينها من"سفايف" و"خروج" جميلة النسج زاهية الألوان وغير ذلك من الأشياء الجميلة التي اعتاد البدوي أن يزين بها راحلته والتي يتفنن الشعراء في وصفها والتغني بها قديماً وحديثاً ويسمونها دشن أو دلال أو دل. وهذا ما عناه زهير بن أبي سلمى في قوله:

علون بأنماطٍ عتاقٍ وكِلّةٍ ... ورادٍ حواشيها مشاكِهَةِ الدمِ
وورّكن في السوبان يعلُون متنه ... عليهن "دل" الناعم المتنعم
وفيهن ملهى للصديق ومنظرٌ ... أنيقٌ لعين الناظر المتوسم
كأن فُتات العُهن في كل منزل ... نزلن به حب الفنا لم يُحَطّم

ويقول عنترة:

ما راعني إلا حمولة أهلها ... وسط الديار تسف حب الخمخم

فـيـهـا اثنتـان وأربعـون حلوبة سـودا كـخـافـيـة الغـراب الأسـحـم
فـصـغـارها مـثل الدبا وكـبـارها مـثل الضـفـادع في غـدير مـفـعـم

والطريق الذي تسلكه أذواد القبيلة المرتحلة قد يختلف عن ذلك الذي يسلكه السلف والمظهور، لأن الاعتبارات التي تحكم حركة الأذواد غير تلك التي تحكم حركة الظعينة. والمسافة التي تقطعها القبيلة في ارتحالها في يوم واحد يسمّونها رْحَله أو شدّه، وهي المسافة بين مراح البارحة ومراح الليلة، أي بين مكان استراحتهم البارحة ومكان استراحتهم الليلة. ولا يبني البدوي بيته إلا إذا أراد أن يقيم في المكان لمدة تزيد عن بضعة أيام وإلا يظل البيت مطويا وينام أهله في العراء. حينما تجد العشيرة مكانا خصبا وماء وفيرا وتريد أن تحل في المكان لمدة طويلة فإنها تفل البيوت وتبنيها. ويختار صاحب كل بيت مكانا يراه مناسبا لبيته فيركز فيه رمحه أو يفرش عباءته على شجرة بالقرب منه لتعرف النساء أين تنصب البيت، بينما يذهب هو لشرب القهوة مع بقية الرجال عند شيخهم. ومن الأمور التي تؤخذ في الاعتبار في اختيار مكان النزول وبناء البيوت القرب من الماء وتوفر المرعى، كما تؤخذ في الاعتبار مسألة الدفاع وصد الهجوم وحماية الأذواد من النهب. وفي موسم الأمطار يحرص صاحب البيت على اختيار موقع مرتفع بعض الشيء لنصب بيته تجنبا لجريان السيل إلى داخل البيت. وينقسم البيت إلى مكان مخصص للرجال يسمى رَبعَه وقسم مخصص للنساء يسمى رِفّه. ويتحدد حجم البيت بعدد أعمدته فيقولون مثولث، أي بثلاثة أعمدة، أو مخومس أو مسوبع. علما أنه بالإضافة إلى هذه الأعمدة الرئيسية يوجد عمودان إضافيان على جانبي البيت في الأطراف، كل منها يسمى كاسر البيت. وغير بعيد من البيت يقيّد البدوي فرسه بالقرب من مراح البل.

وبيت الشيخ عادة هو أكبر البيوت، أو كما يقول أحد الشعراء: فارْقِه كِبِر زولِه. ينصب الشيخ بيته في مكان بارز على رابية مرتفعة "راس النبا"، "راس الندف" حتى يستطيع هو ورجاله رؤية إبلهم في ذهابها إلى المرعى ومجيئها منه ومراقبة أي تحركات مريبة في النَزِل ومشاهدة أي هجوم مقبل وصده قبل وصوله إلى البيوت أو الإبل، والأهم من ذلك ليراه الضيوف وأبناء السبيل والمسافرون عن بعد ويجذبهم بصوت الهاون والنار التي لا تخبو. تقول مويضي البرازية تصف بيت أبو شويربات أمير البرزان من مطير والذي تراه عن بعد كأنه الجبل "الجال" لكبر حجمه:

ملفـاك بيتٍ رَبْعَـتـه كنهـا الجـال والى لفـيت قْـحطّ عنهـا رسنهـا
تَبْـشـر على قـبل التناشـيـد فنجـال وحـايل ثلاث سنين يندى صَـحَنْهـا[1]

ويقول فراج ابن بويتل في الأمير سعود الفغم:

ملفـاك بيتٍ بَيّنٍ كـبـر جـمـران بيتٍ مـخـومس للطراقي ينادي

(١) الربخ: الشحم والسمنة. حايل: شاة لم تحمل ولم تلد فهو أكثر لشحمها ولحمها. يندى صحنها: لكثرة شحمها ودهنها.

عند ايسره تلقى ذبايح من الضان تحوفه اللي مثل ظبي الحماد
وعند ايمنه مجلس نشاما وفتخان ضياغمٍ ياعبيد هرج وكاد[1]

بيت الشيخ هو مكان تجمع رجال العشيرة لاحتساء القهوة وشرب الدخان "الحشايش" وتبادل الأخبار واتخاذ القرارات التي تخص العشيرة بعد التشاور وبناء على المعلومات المتوفرة لدى الشيخ، إنه أشبه بمركز معلومات للحصول على الأخبار عن أماكن سقوط المطر وتواجد المرعى وتحركات الغزاة والنجوع الأخرى. وإذا أراد الشيخ استدعاء رجال قبيلته لأمر مهم وعاجل فإنه يعمد، إذا كان الوقت نهارا، إلى الهاون "النجر" الذي يدق فيه القهوة ويضربه ضربا قويا يُسمع عن بعد، وإن كان الوقت ليلا أضرم نارا عظيمة ترتفع ألسنة لهبها في السماء. والشيخ عادة هو الذي يرسم المسارات ويحدد الاتجاهات التي تأخذها عشيرته في حركتها على مدار العام، وهو الذي يحدد أين تنزل ومتى ترحل وفي أي اتجاه تسير. مع بداية الوسم يرسل الشيخ الرواد "الطلوع"، "العسوس" ليعسوا له الصحراء ويجسونها بحثا عن مواقع سقوط المطر. إضافة إلى ذلك يبعث الشيخ السبور الذين يسبرون طرق الصحراء ليستطلعوا حركة أعدائهم من القبائل الأخرى ويبعث في كل يوم رقِيبه، وهو رجل يصعد أعلى قمة قريبة منهم "مرقاب"، "رجم" ليراقب المنطقة المحيطة بالبيوت. كما يحصل الشيخ على معلوماته أيضا من المناديب والمناجيب الذين يفدون إليه من هنا وهناك ومن الضيوف والمسافرين وأبناء السبيل الذين ترمي بهم الأقدار إلى بيته.

بيت الشيخ هو المكان الذي يتم فيه استقبال الضيوف وأبناء السبيل. والضيافة في الصحراء لا تقتصر على تقديم الطعام والشراب. إنها شبكة من العلاقات والتفاعلات الرمزية والطقوس التي تتداخل بنائيا ووظيفيا، وتترابط مع بقية مكونات النسق القيمي والأخلاقي لأهل الصحراء لتكون مع بعضها البعض ما نسميه شريعة الكرم، أو مؤسسة الكرم عند أهل الصحراء. الكرم مؤسسة من أهم المؤسسات الاجتماعية المرتبطة ارتباطا وثيقا بطبيعة الحياة الصحراوية. منذ أن ظهرت البداوة على مسرح التاريخ وحتى بدأت تضمحل وتتلاشى في العصور المتأخرة وسجية الكرم ملازمة لها ومتلازمة معها. لولا هذه السجية المتأصلة في النفوس لما أمكن السفر والتنقل في الصحراء. كانت نجوع البدو أشبه بالمحطات التي يتوقف فيها المسافرون "الطراقي" ليستريحوا ويريحوا رواحلهم ويتناولوا الطعام ويتسقطوا الأخبار عن الطريق التي سيسلكونها. وتشكل الضيافة قناة اتصال مهمة بين النجوع حيث أن من أبرز مهامها تبادل المعلومات الحيوية بين الضيف والمضيف. ومن هنا يأتي حرص شيخ القبيلة على استضافة المسافرين وذلك من أجل أن يعرف منهم

---

(١) **جمران**: اسم ضلع شامخ. **مخومس**: مقام على خمسة أعمدة. **الطراقي**: أبناء السبيل والمسافرون في طرق الصحراء. **تحوفه**: تطهاه وتعده للآكلين، والمقصود هنا زوجة صاحب البيت. **فتخان**: من فتخان الايدي، وهم الرجال الشجعان أصحاب الهمم العالية.

أخبار المراعي والموارد والمطر والنجوع التي مروا بها وإذا كانوا صادفوا غزاة في الطريق وأين منازل القبيلة الفلانية وهل هي لا تزال في حالة حرب مع القبيلة الفلانية أم أنهما تصالحتا، وكذلك عن أسعار المواشي والغلال إذا كان الضيف قادما من الحضر. ومثل هذه المعلومات ضرورية للشيخ لأنه يبني عليها تحركاته وغزواته وتجعله على اتصال مع عالم الصحراء وعلى علم بالعلاقات والتحالفات والعداوات القبلية والذابح والمذبوح. وربما حمل الشيخ ضيوفه رسالة إلى أحد النجوع التي يعرف أنهم سيمرون بها في طريقهم. هذا عدا أن الضيوف سوف يبثون سمعة مضيفهم وينشرون محامده ويشيدون بجوده وكرمه في كل منزل ينزلون فيه.

في الصيف يتزاحم أفراد القبيلة في مساحة ضيقة ويبنون بيوتهم قرب الآبار تحيط بها على شكل صفوف طويلة تكاد أطناب كل بيت تلامس أطناب البيت المجاور "يقطّبون الجو"، تاركين طريقا تمر منه إبلهم وأغنامهم إلى الآبار للشرب. وهذا ما يسمونه **نَزِل** أو **قطين**، ويسمون هذه الفترة **أيام المقاطين**، ومدتها ثلاثة أشهر "**تسعين ليلة**". ويتجمع خلق كثير حول هذه الآبار ومعهم أذوادهم من الإبل التي يصل عددها إلى الآلاف. والعشب القريب من الآبار ترعاه الإبل في أيام قليلة وشيئا فشيئا تبدأ تبتعد أكثر فأكثر عن البيوت بحثا عن المرعى "**تْعَزِب**". لكن الإبل في المعزب، بعيدا عن بيوت القبيلة وحماية رجالها، تصبح هدفا سهلا للغزاة. لذا يقوم شباب القبيلة المسلحون بمصاحبة الأذواد إلى المرعى وحراستها، "**يجنبون مع البل**" فهم "**جَنَب**". ولا يعود الجنب والرعاة مع الإبل إلى البيوت والآبار إلا كل ثلاثة أيام أو أربعة أو خمسة، حسب حرارة الجو، من أجل أن تشرب الإبل ويملأ الرجال قربهم. ويفرح أهل القطين بيوم ورود الإبل حيث يرتوون من حليبها ويملأون صملانهم ويسقون منه ضيوفهم.

وعمليات تحريك هذه الأعداد الضخمة من أذواد الإبل من وإلى المرعى والدفاع عنها وسقياها حينما ترد على آبار القبيلة عمليات شاقة وخطيرة. لا ترد إبل القطين على الآبار دفعة واحدة بل تقسم إلى أقسام يخصص لكل منها يوم في الأسبوع يرد فيه "**وجْبه**". وإذا كان المرعى بعيدا عن المورد فإن الذود يبدأ حركته باتجاه المورد قبل وجبته، أي اليوم المخصص لوروده، بليلة أو ليلتين، حسب قرب المورد وبعده. والليلة التي تسبق وصول الذود إلى المورد تسمى غِدِر، ويقال للإبل مِغدْرِه، وإذا قربت من المورد قيل لها قِرْب وليلة الورد تسمى وِرْد، ويقال للإبل مورّده، وإذا باتت الإبل في المورد فهي ثْخَمِر ويقال لها خمِر والليلة التي تعقب الورد حينما تصدر الإبل عن الماء وتبدأ حركتها نحو المرعى تسمى صدِر، ويقال للإبل مِصدْرِه. والليلة التي تلي ليلة الصدر هي ليلة **الغب** وتسمى الإبل مْغبّه. هذه أشبه بالمحطات التي يمر بها الذود في حركته الدورية والمستمرة بين المورد والمرعى.

وحينما ترد الإبل على الآبار تكون في غاية العطش وحالما ترى الماء وتشمه تهجم عليه متدافعة متزاحمة، "تِداحم البل على الما"، "لهن عَرْك"، أو كما يقول المثل: البل شربه دحم. ولشدة تدافعها وتداحمها يتطاير الوبر من على ظهورها "تطير شْعَفَتْها"، ولذلك فلا بد من وجود شباب نشيطين وذادة مهرة بعضهم يتولى نصب النواعير ومتح الماء من الآبار العميقة، وبعضهم يتولى نصب الحياض الجلدية وملأها بالماء، وآخرون يقفون بعصيهم يردّون الإبل "يقرعونها" ويدفعونها بأيديهم لتنتظم حركتها على شكل أرتال تتعاقب على الحياض للشرب، وهذه مهمة في غاية الصعوبة. تدافع الإبل المتزاحمة وبهذه الأعداد الكبيرة قد يؤدي إلى الفوضى وتحطيم الحياض وعدة السانية وربما دفعت الإبل بعضها بعضا أو دفعت الذادة في البئر أثناء تزاحمها على حافته. ويدربون بعض الإبل النشيطة لتقف على حافة الحوض، بينه وبين البئر لتصد البقية من التداحم على البئر حتى لا تدفع من يمتح الماء ويقع فيه "تجي بينك وبين الحوض تْتَكّي لامّاتها، لالايفها". ولتخفيف عناء العمل تسمع الرعاة يرددون أحديات مخصصة يهزجون بها أثناء توريدهم للإبل، مثل:

تهـــــايقت للمـــــايح تحـــــــــسب ولدها طايح

أو:

صب القلص لشـــــعيله كـــم درهـــمت مـــن لـــيلـــه

وفي وصفهم للحروب والمناوشات كثيرا ما يشبه الشعراء قوة اندفاع المقاتلين تجاه العدو بتدافع الإبل العطشى حين ورودها على الماء. يقول العباس بن مرداس يصف مجالدتهم الأعداء الذين يشبه قوة هجومهم وتدافعهم نحوهم بتدافع أذواد الإبل التي أمضت في المرعى خمسة أيام بدون ماء على الذادة الذين يضربونها ضربا مبرحا لينظّموا حركتها ويحدّوا من تدافعها:

نطاعن عن أحـــسابنا برمـــاحنا ونضربُهم ضرب المُذِيدِ الخوامسا

ويقول حسيل بن سجيح الضبي:

وأرهبت أولى القـــوم حـــتى تنهنهـــوا كـما ذدت يوم الورد هيـما خـوامسا

ويقول سهم بن حنظلة الغنوي:

وإنا نَـحُـسُّـهم بالمشـــــرفي وهم كـالهيمِ تُغْشى بأيدي الذادةِ الخُشبا

ويقول بخيت ابن ماعز العطاوي:

حـــدّيتـــهم حـــد الظوامي عن البـــيـــر ومن عـقب مـا هي ضـيق راحت فـضـيّـه

ويقول جهز ابن شرار:

ياليت مـتـــعب شـــاف هاك العـشـيّـه ليـتـه حـضـر واشـتـاف مـا شفت بالعين

يوم اقـــبلوا مـــثل الورود الظمـــيـــه والا يشـــادون الحـــجـــيج الملبّين

ويقول خلف الاذن:

وردوا هل العليـــا كـــمـــا ورد الاقطاع على غـــديرٍ مـــا كـــفـــاهم شـــرابه

واليوم الذي يرد فيه الذود، حسب نظام حركته الدورية بين المورد والمرعى، هو اليوم الذي يصل فيه ظمأ الإبل إلى الذروة، وتأخير يوم واحد قد يؤدي إلى هلاك الذود. وحينما يزداد الضغط على الآبار ويشح ماؤها في أواخر أيام الصيف تزداد حدة التوتر ويكثر النزاع والتشاحن بين أبناء القطين أنفسهم حول أحقّية الورد ووقته ومدته وكميته. ويعيش الجميع في حالة ترقب حينما ترد الإبل خوفا من أن يغتنم الأعداء تجمعها قرب الموارد فيسوقونها أمامهم وينهبونها. وعادة ما يلتقي الصدير، الإبل التي وردت أمس، مع **المغدره**، تلك التي ستـرد غدا، وتبيت في نفس المكان مشكلة بذلك غنيمة جزلة وإغراء لا يقاوم بالنسبة للغزاة.

ما يحدث من توتر ومن مواقف ومن حركة وضجة وغبار حينما تهجم الإبل متدافعة على المورد وما يبذله السقاة والذادة من جهود شاقة لفرض نوع من النظام والانضباط على هذه الفوضى العارمة يذكرنا بأفلام رعاة البقر ومشاهد الروند اَبْ roundup التي فيها يحاول الرعاة على خيولهم جمع قطعان البقر وسوقها إلى الجلب أو من مرعى إلى مرعى. طبيعة الورد وما يحدث فيه جعلت منه موضوعا قابلا للمعالجة الفنية فاستلهمه الشعراء، كحدث وكمفهوم، وجعلوا منه مشهدا مسرحيا مليئا بالأحداث الدرامية والغرامية المثيرة، مثله في ذلك مثل ارتحال قبيلة المحبوبة وغيره من المواضيع الشعرية التقليدية المستمدة من طبيعة الحياة البدوية. وقد وصف لي الراوية جهويل المري من قبيلة المره ما يحدث عند الورد على النحو التالي:

> يقول صاحب المثل: شارب شريبك شاربه واحذر تعِض بغاربه، هذا يقولونه الباديه يوم يردون على القلبان. الرجال اللي الله هاديه ومغنيه ومبارك له بعياله وحلاله يقول: لا اله الا الله، توكلنا على الله، ما توفيق الا بالله، صلاتي على الرسول، أول ما نبدا نقول، عَبْدْ صلّ على النبي، عَلّ همّك ينجلي، الشطّه ما هي تبطي، الشطه ساعه وشوي، الشطه على الردي، يالله بوردةٍ حاضرها النبي، يالله بشريبٍ ولد حلال ان سقى والا ما عدا. دلّى دلوه ثمٍّ غسّل وجهه اول شيٍ من الحوض. هذي الشياطين الله يلعن الشياطين تاتي مع الورود ومع البل، البل معها جنون. يوم يوردّون على القلبان اكثر اللدود اللي تشوف على القلبان وعلى شان البل وعلى شان الشياه وعلى شان ردا النصيب الله يكافينا واياكم ردا النصيب. يوم الورد، الى وردّوا البل على القلبان، القلبان ما هي سوا، امّا اهل نجدٍ ذولا قلبانهم ماها شْوَيّ ويْعَقّلونَ البل ويسقون بعضها وبعضها معقّل والى اسقوا ذي ردّوها وجوا بهذيك. اما المرّه فْلا، يخلّونها تجي على حوضها وطبيعتها، توقّف على حوضها، لها حوض توقّف عليه. الباديه تختلف فى المواريد حسب اختلاف القلبان. قبيلة المره هذولا حلالهم واجد وقلبانهم ماها واجد مير انها هماج. يقول شاعرهم: حي اهل عدٍّ جنوبٍ على جاله عَبَل// طيب للبل وراعيه ما يقطع ظماه. لأن ماها هماج. مِ لَوّل الحيضان، طال عمرك، ياخذون لهم عيدان اثل ويحنّونها ويحطّونها حنيّتين، الحنيّتين يْعَرْقونها ويْغَدي للحنيّتين اربع روس، تطلع روسها، ومعها حنيّه فى الوسط، وياخذون جلد البقره، بقر الوحش، جلد البقره ياخذونه ويخرزونه عند الخراز، يحطّون جلد بقرتين ويلاقون بينها ويخلّونها مثل القلته ومحتمله على الحنايا، يسمونها الحنايا، حنايا الحوض. والدلو مثله، يذبحون الحاشي ويصلخونه صلخ، ما يقطعون جلده قَسمين، يصلخون جلده كله كامل ويخرزونه

الحريم، مِ لَوّل يخرزونه الحريم وبالوقت التالي صاروا يخرزونه الخرايز، خرّازٍ من اين ما يكون الخراز، يخرزه ويزيّنه. جلد ناقه أو جلد بقره، الحوض او الدلو. والى وردت البل كل ابل لها حوض وان بغيت تحط لها حوضين بعد جايز، حسب كثر البل من قلّه وحسب قدرة راعيها. واللي يوردهن على قول المثل: البل باثنين مْيَه والا ثنتين. واحد عند الحيران يْعَدّى المقهور، يقهر الحيران، وواحدٍ من وراها يرد اللقاح، يرد العشاير اللي ما هيب خلفات، اللي ما لها حيران، يجي من ورا العشاير يردّها على خويّه. خويّه عند الحيران، يقهرها على شان ان الخلفات تركد والعشاير تراعيها مراعاه وتعوّد علاها، تريض لى عيّنت لها عشب او شجر طيب. الى ملا الحوض تجي البل تداحم ويْغَدي لها رْغَوَه، يْغَدي لها رْغَوَه، الصغير تضغطه امهاته. وهو ينقعْها بالعصا، ينقعها الشايب اللي ما هو يسقي، عند الحوض وينقعها، ينقع روسها، على شان كلها ما تداحم ويكتل واحد الثاني. والا هي تداحم ويطير غزلها، يظهر غزلها، يطير فوق، تشوف غزلها وشْعَفَتْها مثل الغربان فوق، لها مداحم. ويطبّعونها تِطبِّع، يطبّعون فيها ثنتين والا ثلاث والا اربع نياق الى صارت واجد، اربع من اكبرها وازينها واقواها وهي تجي على طرف، تجي بينك وبين الحوض وتمنع البل عنك، تقهرها، تْتكّي لامّهاتها، لالايفها، ولا تخلي البل تجيك، والبل تشرب من وراها وتعوّد. والى تْعبَت هذي والى قد هي رويانه عوّدت وجت خويّتَها في مكانها، جت محلّها، زام، أبد، تقول زام. لكن الاكثر الناس طبوع البل زينه ويسرح عندها واحد. بالاول ذيك الحين فيه رِعِي وفيه قِشْعٍ طيب ويسرح عندها واحد ويصيّح لها: يا هاووووه، وتجي على الصوت، ويصدّرها للرعي والى من بغى يرد لى قد هي عْطاش وصوّت لها للما عوّدت وقامت تراعيه مراعاه. وحوّل على العرب، وقالوا: ياجماعه ابل فلان الليله بتِرِد يابختكم بالغبوق. هكالحين اوّلا ما به الا لبن وتمر ولحم الصيد وخيرات فضيله. وقاموا عيال الجماعه، العيال النشيطين قاموا يساعدون راعيها. اللي يبي يساعده من طيبه واللي يساعده يبيه يدعيه ويدعي ابوه ويدعي ضيفانه ويْغَبِقهم يعطيهم سحالٍ مملاةٍ لبن يقلّطها عليهم. بالليل الى جوا الضيفان وابل فلان ورْد قالوا فلان عنده ضيفان، قام وحلب له في قدرٍ كبير له حلاق وطلّعه هو وولده والا راعيِّه ولا شفته الا جايبٍ لك قدام بيتك وقدام ضيفانك وانت ابلك ما هيب على الما، بالمظما. حط القدر الكبير مليان وطايرةٍ رغوته تشوف بياضه طالعٍ الرغو مع عرض القدر، انت عشّيت ضيفانك واغتبقوا من خير ابن عمك هذا، من ابله اللي جات، خير الله لَوّل ثم خيره، واغتبقوا ضيفانك واغتبقوا جيرانك وعْوالك وانت اغتبقت انت وحرمتك وقلت الله يجعل من جابك فى الجنه، الله يبارك لك فيها والله يطرح لها الغيث ويجيرك واياها من الغثا. والبل عندنا لها شانٍ عظيم بَعَد. يعوبلون فيها ويحودون فيها ويرشّونها بالما ويحطّون في حلوقها خيوط ويحطون في حلوقها جرس، ويحطون لها سفايف، خيوطٍ يخدمونها خدمه، يحطون لها زرجه في الغارب وزرجة في فقارها، ودباديب، زرجة يَنْطونَها البنات المزايين. لى صار لك ناقةٍ طيبه وانت سنافي والا متعاشقٍ لك مع وحدة من طرف الجماعه تطَرّش عليك بحبال فيها زرجة الديك وفيها دباديب تبيك تفرح وتبيك تنومس. والا ابوها بعد سنافي قال لها حطي في ناقة فلان زرجه والا اخوها رجل طيب، والا راعيتها، راعية بيتك، والا اختك ما بعد تزوجت وتبيك تفرح ياخوها وابوها يفرح. وهذا شغل الباديه اول. الله الله.

تتمثل قوة القبيلة وثروتها في عدد الأذواد التي تمتلكها وفي قدرتها على حمايتها من الأعداء والغزاة ورعيها في المراعي الخصيبة التي تتنافس عليها القبائل. لذا يكرس البدوي كل طاقته ووقته للعناية بتربية ذوده وتنميته، وحياته على اختلاف نشاطاتها ومظاهرها ما هي إلا تكيف نحو تحقيق هذا الهدف. فهو يرفض حياة

التحضر وما يمكن أن توفره له من راحة وأمن واستقرار ليجوب الصحاري والقفار في تجوال لا ينقطع بحثا عن المرعى لإبله. ولا تستقيم أمور الحياة للبدوي في الصحراء إلا بامتلاكه العدد الكافي من الإبل. والموسر منهم هو من يمتلك رعية يتراوح عددها ما بين الخمسين إلى المائة ناقة. ويحدد دونالد كول الحد الأدنى اللازم من الإبل لعائلة صغيرة من آل مرة في حدود العشرين إلى الثلاثين ناقة (Cole 1975: 37) بينما في الصومال يرى لويس أن الحد الأدنى يتراوح من الخمسين إلى الستين (Lewis 1961: 58). وهذا العدد ليس كله من الخلفات التي تدر حليبا، وإنما يكون فيه مظاهير أو زَمِل وهي الجمال القوية المخصيّة التي يحمل عليها البدوي بيته وأهل بيته ومتاعه، وفيها رْكاب وهي النوق المذللة والمعدة للركوب في الأسفار البعيدة والمغازي وخلفات يحصل منها على الحليب، وعشاير ستلد وتدر الحليب عام قابل حينما يجف حليب خلفات هذا العام وحيل أي التي جف حليبها لكنها لم تلقح بعد. حينما نزل شيخ بدوي مسن في أحد القرى ومرض وأشرف على الوفاة أوصى ابنه الذي كان يرافقه قائلا: **كان تريد تتبع ربعك ارع الخزينه وانحر حايل واشر ثلاث صنافات؛ حِقّه وجْذِعِه وثنيّه؛ لقحه واللي تلقح الجايه، المقبله، واللي على اثرها، وزمل، وارع بيتك وانحر ربعك.**

تبدأ الناقة في الحمل والولادة من سن السادسة وتستمر حتى سن العشرين، وتتوقف عن الإنجاب وتصبح غير قادرة على حمل الأثقال في سن الخامسة والعشرين، وقد تعيش إلى سن الثلاثين. وتدر الناقة يوميا حوالي تسع لترات من الحليب ويستمر الإدرار لمدة سنة ويتوقف عند الأسبوع الخامس من الحمل التالي. وللناقة في ضرعها أربعة أخلاف كل منها له فتحتان. وعادة ما يشمّلون ضرع الناقة بقطعة قماش تشبه الكيس أو يغرزون أخلافها بالتوادي، أي الأعواد التي تربط بها أخلافها، وذلك ليمنعوا حوارها من رضاعها. وتحلب الناقة مرة في الصباح "صبوح" ومرة في المساء "غبوق"ولا تختزن الناقة حليبها في ضرعها كغيرها من ذوات الظلف حيث بإمكانها أن تدر أو تحبس حليبها متى شاءت وحسب مزاجها. وعادة ما يعزل صاحب البيت بعض الخلفات ويمنع أهل بيته من حلبها ليخصص حليبها لفرسه أو للضيوف "الخطّار" وهذه تسمّى "عدوله" أو "مجمّعه". وحليب الإبل أكثر ملوحة من حليب البقر ويتغير طعمه من فصل لآخر تبعا لتغير الماء والمرعى، وهو غني بالبروتين والمعادن والفيتامينات الضرورية لجسم الإنسان مثل فيتامين B وفيتامين C وهو لذلك أكثر فائدة من حليب البقر والغنم. أما لحم الجزور فإن نسبة الدهون فيه أقل من لحم الغنم والبقر ويمكن الحصول من الجزور على كمية من اللحم تتراوح من ٣٠٠ إلى ٥٠٠ كيلوغرام.

وتحتاج رعية الإبل إلى فحل أصيل "هدوده" يضرّبها وإلى قِعْدِه، وهي ناقة ذات لون مميز ومدربة يركبها الراعي ويحمل عليها متاعه ومؤونته وتقود الرعية التي

تتبعها حيثما وجهت ولا تبتعد عنها، ويسمون هذه الناقة أيضا رحول أو ركبي. ويعد صاحب الإبل أمام بيته لها مراحا تبيت فيه حينما تعود من المرعى في المساء "الى هْظَلَت البل". وعادة ما ينام صاحب الإبل معها في مراحها لحراستها من اللصوص، وزيادة في الاحتراس ربما أوقد نارا أو ظل يردد الحداء بين الفينة والأخرى طوال الليل لإخافة اللصوص وتنبيههم إلى أن الإبل عندها من يحرسها. وفي الصباح يقود الرعاة أذوادهم وقطعانهم "السرح" إلى المرعى. وفي المرعى تختلط القطعان والأذواد ولكن حينما يقترب المساء ويحين وقت الرواح إلى منازل العرب فإنه وبدلا من استخراج إبله واحدة واحدة يركب الراعي على رحوله "القعده" وببدأ يشايع ويدوّه لإبله. ولكل حالة مشايع خاص بها مثل الذهاب إلى المرعى والعودة إلى المنازل والورود إلى الماء والصدور منه. والمشايع أو التدويه مثله مثل الوسم، بمعنى أن لكل صاحب ذود تدويهه الخاص بذوده الذي يرثه عنه أبناؤه والذي يختلف عن غيره بكلماته ونغماته (حبردي ١٩٨٩: ٦٤-٥). وكل صاحب ذود له نداء مميز يمط به صوته يسمى مشايع أو تدويه يعرفه ذوده فيترك المرعى ويأتي لسماعه ولو من مسافات بعيده، وقد ينادي كل ناقة من نياقه باسمها الذي تعرفه. وإذا سمعت الإبل نداء صاحبها توقفت عن الرعي إن كانت ترعى أو عن الشرب إن كانت تشرب والتفتت نحوه وبدأت بالحنين وانطلقت معه تاركة وراءها الماء والمرعى، ولا أحد يستطيع أن يمنعها من العودة إليه، وربما قطعت عقالها أو القيد إن كانت مقيدة. بل يقال إنه في حالة الغزو يستطيع صاحب الإبل أن يسترد إبله المنهوبة بمجرد أن يرفع عقيرته ويشايع لها من بعيد فتعود إليه دون أن يستطيع الغزاة الوقوف في طريقها وردها عن العودة. ويحدثنا الرواة أن عبدالكريم الجربا غزى على الظفير ونهب أذواد قيعي الشليمي الوِضْح التي تقاسمها الغزاة فيما بينهم ولما عادوا إلى أهلهم سرح كل منهم نصيبه من الكسب مع أذواده. وبعد سنتين قدم الشليمي إلى عبدالكريم وقال فيه قصيدة يمتدحه ويترجاه أن يعيد له أذواده. ووافق عبدالكريم ولكنه بين للشليمي صعوبة جمعها نظرا لتفرقها بين أذواد الغزاة. فقال الشليمي دعني أشايع لها وأنا متأكد أن إبلي حالما تسمع مشايعتي لها ستريع إلى صوتي وتأتي من ذات نفسها.

> قال عبدالكريم: يالله ياعبيد اركبوا مع الشليمي ودوجوا به على شمر اللي عندهم يعني حْصَص من البل هذي متقاسمينه واجمعو نياقه له. قال: ياعبدالكريم انت ما قصّرت لكن انا ابنطّ راس الضليع هذا وابدوّه وابي منكم تَحَشْرون الحلال واللي تجي يمّي ما يردّه راعيَه وابي بس ادوّه. قال: ياشيخ لهن سنتين ناسياتن حسّك ولاقياتٍ دويد العسل، الجزيره مثل الجنه كل شيٍّ به، ما يجنّك. قال لا انا لي سنتين ما فضّيت عن صدري وانا كامتٍ صوتي بصدري وابفضّي هالضحوية عن صدري، ابدوّه. قال: دوّه والحلال هذا لازم يجمع ولا يمد شي ولا ترد ناقة تجي يم هالرجل اللي يدوّه. وهو يقوم لك يدوّه يحط اصباعه باذانه ويصيح ويدوّه للبويضوّايه. يقول

يوم بحرّوا الى قومتهن يتطلّقن مثل خيوط القطن هالوضح من هنا ومن هنا لياما اجتمعن عنده.
يوم اجتمعن وتفقّدهن ليا كلهن، ليا الحيران اللي حَدْرِهِن يوم يوخذن صايراتٍ حَشُو واللي بِبْطونهِن صايراتٍ مخاليل.

ونظرًا لحياة الحل والترحال التي يعيشها عرب الصحراء أصبح موضوع الرحلة والرحيل ودورة الحياة البدوية خلال فصول السنة المتعاقبة من أخصب المواضيع التي تطرق لها شعراؤهم، فصيحهم ونبطيهم، بدوهم وحضرهم. وهذا موضوع شعري تقليدي لا يوثق رحلة حدثت فعلا ولا يحكي عن امرأة بعينها ولا يعني أن الشاعر حقًّا مر وتوقف عند طلل دارس، ويخطئ من يفهمها كذلك. المسألة أعمق من ذلك وأبعد بكثير. إنها محاولة للتكيف مع معطيات الحياة الرعوية والتوافق مع واقع المجتمع البدوي، إنها معالجة فنية لهذه الدراما الإنسانية. حديث الشاعر عن الأطلال وعن لقاء الحبيبة وفراقها حينما ترتحل مع أهلها ليس إلا تشفيرا وترميزا وتجريدا لنبض القبيلة في تجمعها وتفرقها على مدار العام وتأثير إيقاع الحياة البدوية الرعوية على العلاقات الإنسانية. خلال تجوالهم الذي لا ينقطع في ديرة القبيلة ومراعيها ومواردها تنشأ بين الأفراد من مختلف فروع القبيلة الذين تجمعهم الصدف والظروف في قطين واحد أو نجع علاقات إنسانية حميمة، علاقات الحب والعشرة والصحبة. إلا أن هذه العلاقات عرضة للإجهاض حينما يفترق المحبون ويذهب كل منهم مع عشيرته في اتجاه مختلف عن الآخر نتيجة تفكك القطين وتشتت النجوع والارتحال المتواصل. في القصيدة تتحول الإبل والسحب والبرق والمطر والأنواء والنجوم ومسافات الصحراء وغير ذلك من الظواهر التي تحكم تحركات القبيلة إلى وسائل لجمع الأحبة أو لتفريقهم. يقول سالم ابن تويم الدوّاي:

البارحه بالليل عيني سهيره ... والقلب من كثر الهواجيس مشطون
واليوم بالمشراف مثل النطيره ... اقفاي واقبالٍ على الرجم هاللون
عدّيت في حيدٍ نْصاله كبيره ... أخيل نجعٍ ثوّروا وين ينوون
اللي نبي قفّى جنوبٍ نشيره ... واهلي من الجوبه شمالٍ يشدّون
فكّرت لين الشوف غورق نظيره ... نوب نميّزهم ونوبٍ يضيعون
الله يلوم اليوم واره قصيره ... ما تكشف اللي بايسر البرق يمشون[1]
حوّلت منها الحظ يلعن مشيره ... مثْكدّرٍ والناس ما عن يدرون

والقصيدة التالية للشيخ راكان ابن حثلين يبدأها بالشكوى للأمير محمد بن سعود بن فيصل بن تركي الذي يلقبه "ابو هلا" لسخائه وكرمه وكثرة ترحيبه بالضيوف. هذا ولا تخفى علاقة الرحم التي تربط الأمير سعود بن فيصل بن تركي وأبنائه من بعده مع قبيلة العجمان. ثم يطلب في القصيدة السقيا لديارهم ومراتعهم التي يعدد فياضها ووديانها مثل التريبي وخصيفا والثمان وساقان والسيف وحسنا

(١) **النطيره**: الناطور. **هاللون**: هكذا. **نصاله**: حجارته. **أخيل**: أرقب وأصلها من يرقب السحب "الخيال" والبرق لمعرفة أين يسقط المطر. **غورق نظيره**: اغرورقت عيناه بالدموع. **واره**: قارة معروفة في بادية الكويت.

والرديفه. ثم يستطرد في وصف رحيل القبيلة وراء الكلأ وما تتعرض له قبل نزولها في آخر النهار من هجوم من قبل الأعداء المتربصين بها وكيف يسارع فتيان القبيلة لركوب خيلهم لصد الهجوم واستنقاذ أبلهم من المعتدين.

يابو هلا طير الهوى خبّث البال ... الطير نزرٍ والحباري قليله
ياليت رجّالٍ يبدّل برجّال ... ويااليت في بدلى الرجاجيل حيله
ياالله ياللي طالبه ما بعد فال ... ياللي من الضيقات ينجي دخيله
افرج لمن قلبه غدى فيه ولوال ... والنوم ما جا عينه الا قليله
لى من ذكرت رموس عصرٍ لنا زال ... شوف الفياض وفقد عز القبيله
يازين شدّتهم الى زوّع المال ... يتلون برّاقٍ تلالاٍ مخيله
يتلون برّاقٍ سِمَر عقب الامحال ... تلقى التريبي فايضٍ عقب سيله
يسقي خصيفا والثمان ارضها سال ... مَرْتع معطّرة السيوف الصقيله
عجمان لى ركبوا على كل شِملال ... يفرح بهم راعى النياق الهزيله
من جَوّ ساقانٍ الى السيف همّال ... وينوش حسنا والرديفِه هميله
وان قادنا من يمّة القفر خيّال ... يصبح شديد البدو عجلٍ رحيله
قاد السلف واستجنبوا كل مشوال ... والعصر يا ما احلى تخيبط نزيله
وان شرّف البادي على روس الاقذال ... والمال كثر الزول زوّد جفيله
تلافحت من بينهم شهب الاذيال ... ومن ضيّع المفتاح واعزّتي له
ركبوا على طوعاتهم كل عَيّال ... وكل ابلجٍ يحري بكسب النفيله
تغانموا المفزاع ذربين الافعال ... من قبل تسبق غارةٍ تنثني له
يبغون طوعة روسهن قبل الادمال ... وتغانموا خِلْفٍ كثيرٍ هجيله
وحال الكِمي من دون عطرات الاجهال ... ومرّوا ولحقوا مِقَحْمين الدبيله
واللي تريّض عقبهم يلبس الشال ... من صنع داودٍ دروعٍ ثقيله
يلزم عليهم عَلّةٍ عقب الانهال ... ومن غارته لزمٍ يضيّع دليله
والدم من قحص الرمك يثعل اثعال ... يَزْعَج على وروك السبايا وشيله
هذيك راعيها من المعرقه مال ... وهذي شِكَلْها مطرقٍ ما تشيله
من وقع كل مجرّبٍ قد له افعال ... وفروخ صادن الحباري فصيله[1]
وليا ركبنا فوق عجلات الازوال ... وبايماننا حدب السيوف الصقيله
ما حن نحسّب لى اشتبك عج وكْتال ... وترّك صْبَيٍّ يقتنع بالفشيله
ومن عقب ذا ياما حلى شرب فنجال ... في مجلسٍ ما فيه نفسٍ ثقيله

---

(١) **ما بعد فال**: لم يخب رجاؤه وفأله. **رموس**: دوارس. **زوع المال**: قوّض، انطلقت الإبل بأحمالها. **الامحال**: السنين المحلة التي لا يسقط فيها المطر ولا ينبت العشب. **معطرة السيوف**: من يعطرون سيوفهم بأفعالهم البطولية. **شملال**: سريع الجري. **مشوال**: الخيل تشول بأذيالها لنشاطها. **روس الاقذال**: قمم الجبال. **شهب الاذيال**: الخيل. **المفتاح**: مفتاح القيد الحديدي الذي تقيد به الفرس. **عيال**: شجاع. **أبلج**: وضاء الوجه، كريم النسب. **كسب النفيلة**: يفعل فوق ما هو متوقع منه ومطلوب، مثلما أن النفيلة هي ما زاد عن الفريضة. **المفزاع**: النجدة. **الادمال**: الادماس، ظلمة الليل، ولضرورة القافية قلبها من الادماس إلى الادمال. **خلف**: خلفات، نياق حلوبة. **هجيل**: حليب. **مقحمين الدبيلة**: من يكبدوا عدوهم خسائر فادحة وهزائم ساحقة. **الشال**: الدرع مجازا. **يثعل اثعال**: ينهمر. **وشيله**: جريانه. **شكلها**: طعنها بدون مقتل. **مطرق**: رمح. **فصيله**: متعودة ومدربة.

هـذا ولـد عـمٍّ وهـذا ولـد خـــــــــال وهـذا رفـــــيـقٍ مـــــا نـدوّر بـديـلـه

سالفة وقصيدة للشاعر رضا ابن طارف الشمري

ومن الأمثلة الجيدة على المعالجة الفنية لنبض القبيلة الموسمي في حلها وترحالها سالفة وقصيدة سجلتهما عام ١٣٩٨ هـ من برنامج البادية الذي يبث من إذاعة الرياض. السالفة والقصيدة من نسج ورواية الشاعر رضا ابن طارف الشمري رواهما لمقدم البرنامج إبراهيم العبدالله اليوسف. واستغرق سرد السالفة والقصيدة نحوا من ربع الساعة. ورضا شاعر وراوية معروف من المفضّل من عبده، من قبيلة شمر ويحفظ الكثير من القصص والقصائد التي تصور حياة البادية، وتتحدث عن مآثر رجالها ومفاخر قبائلها. منحه الله ذاكرة قوية، وصوتاً جهورياً، ولساناً فصيحاً، وموهبة فذة في سرد القصص، ورواية الأشعار. وفي هذه المقابلة التي سجلناها له من برنامج البادية يتحدث عن مناسبة إحدى القصائد التي نظمها هو. وتتلخص السالفة في أنه أحب إحدى الفتيات وأحبته، وأبدت له رغبتها في الزواج به. وحينما جاء الصيف والتأم شمل القبيلة وقطنوا على الآبار، أرسل إليها رسولاً ليخطبها. ولكن الرسول صنع ما لم يكن بالحسبان، حيث خطب الفتاة لنفسه مما أدى إلى سوء تفاهم بين رضا والفتاة، فتتعقد أحداث القصة نتيجة لذلك. لكن الحقيقة -كعادتها- تنكشف في خاتمة المطاف، ويفتضح أمر الخاطب الخائن، ويتصالح رضا مع فتاته، ولكن بعد أن حان وقت الرحيل، وقت تفرق القطين في جوف الصحراء بحثاً عن المرعى، مما اضطر رضا إلى تأجيل موعد الزواج الذي -على أية حال- لم يقدر له أن يتم.

ويبدو جلياً أن إبراهيم سمع القصة من رضا قبل هذه المرة، لذلك نجده يسهم تلقائياً في توجيه الأحداث حتى يجعل هذه الرواية متفقة مع الرواية التي سمعها من قبل، كما نجده يدلي بعبارات من شأنها أن تشجع رضا على الاستمرار في الحديث وتجعله يحس بالعلاقة الوثيقة والفهم المتبادل الذي يربطه -بصفته راوية- بإبراهيم بصفته مستمعاً. هذا بالإضافة إلى بعض الملاحظات والأسئلة التي يوردها إبراهيم بين فينة وأخرى. بل إن إبراهيم أحياناً ينهمك في الانسجام والتفاعل مع القصة لدرجة أنه يتقمص دور رضا، وينطق باسمه، ويضع الكلمات على لسانه. وإبراهيم بعمله هذا لا يعدو أن يكون مستمعاً يريد أن يعبر عن تشوقه لما يسمع واستمتاعه به. وهذا شيء مألوف، إن لم يكن مطلوبا.

والسالفة تعطينا صورة واقعية لمجتمع الصحراء وحياة البداوة التي كان رضا -حتى تاريخ روايته للقصة والقصيدة- يعيشها متنقلا مع إبله من رفحاء في شمال المملكة العربية السعودية إلى مناطق الأهوار في العراق، حيث المراعي الخصبة. ولا تقل السالفة من حيث القيمة اللغوية والأدبية عن القصيدة، فأسلوبها رصين،

وألفاظها جزلة، وتعابيرها بليغة. ويتحدث الراوي بلهجته الشمرية التي تتميز عن لهجات وسط الجزيرة بقلب التاء والهاء في أواخر الكلمات، لاسيما في حالات الوقف، إلى حروف لين (مثلاً: **البَخَت** › **البَخَيْ**، **مِضَت** › **مِضَيْ**، **سالْفِه** › **سالْفي**، **ْيسَمُّونُه** › **ْيسَمُّونو**، **يَخَدْمِنُّه** › **يَخَدْمِنُّو**).

ونقل السالفة من شفاه الرواة وأفواه المؤدين وتدوينها كتابة قد يجعلها تبدو مهلهلة النسيج، مخلخلة التركيب، يصعب فهمها ومتابعة أحداثها. لكن لكي تسهل على القارىء مهمة الفهم والمتابعة عليه أن يضع نصب عينيه أن ما أمامه ليست قصة مكتوبة بل نصاً شفهياً، وأن يتخيل نفسه طوال الوقت جالساً مع الراوي يشاهد حركاته، ويشعر بسكناته، ويسمع نبرات صوته نبرة نبرة. ولمساعدة القارئ على تتبع السالفة أضفت بنفسي على النص كلاما وضعته بين (قوسين) لأفسر به كلاما سابقا، وأضفت كلاما وضعته بين [معقوفين] لأسد فجوة في السرد الكلامي.

إبراهيم: حيّاك الله ياأخ رضا.

رضـــا: ابقاك الله.

إبراهيم: فيه قصيده –طال عمرك– اعرف انا منها بيت اللي تقول فيه: ياالله لا ترزق خطاة البطولِ// اللي على المسلم يدوّر بخاشيش. هذي اظن لها مناسبه؟

رضـــا: اينعم، له مناسبي، من قصايدي هذي.

إبراهيم: أدري انّه من قصايدك. وانت قصايدك واجد، وما شا الله، تْحَفَظْ غير قصايدك.

رضـــا: والله واجب علينا.

إبراهيم: وانت يسمّونك شاعر الانصاف، ما عندك تحيِّزات لا لشمّر ولا غير شمّر.

رضـــا: طال عُمْرَك انا كل تاريخ البـاديَي (= البـاديه) افتـخر بو (= بُه)، جميع تاريخ البـاديي نفتخر بو.

إبراهيم: وهذا طال عمرك هو الواجب، لذا سمّوك شاعر الانصاف.

رضـــا: اينعم.

إبراهيم: وش مناسبته –القصيده؟

رضـــا: له مناسبي ومناسبته طويلي (= طويله)، ولكن نختصر بالموجز على، يعني، لا تطول على البرنامج.

إبراهيم: اينعم، هي اظن زعجت واحد يخطب لك أو كذا.

رضـــا: تهاويت انا وْيا لي وَحْدَي (= وحده) من بنات البـاديَي، وانا تْخَبَر كل عيشتي بالبر مع البـاديي بدوي لْيا لان (= حتى الآن).

إبراهيم: ولا تزال، اينعم.

رضـــا: اينعم، يوم تهاويت انا وْياه ايّام الربيع وجا ايّام الصيف –وقت المقاطين– وننزل على ما، هم على بير وحنا على بيرٍ ثاني، ما حِنّا جميع على بيرٍ واحد.

إبراهيم: لكن متْقاربين من بعض.

رضـــا: ايه متْقاربين، كِلّنا على جَوّ واحد.

إبراهيم: يعني يْسَيِّر بَعَضكم على بعض.

رضـــا: ايه يَسَيِّر بَعَضْنا على بعض. كِلّنا على جَوّ، كِلّنا على جَوّ واحد بو حِرْوَةْ عْشِرْة ابيار،

ارسلْت لي واحدٍ عَلْيَه، يعني ارسلتو عَلْيَه ابَخَطِب.
إبراهيم: تبي تشوف هو ما عنده مانع.
رضـــا: أشوف هي على حكيه، جوابه، يعني، بايّام الربيع أو متْغَيّري. وانا عندي شك لاجل ان قبَل مَوَدّة الربيع هذي انّه قبَل اللي مِي هِي مغلْبِتَك حيل، مغليتك خادعَه يعني المَحَبّي قبَل يْغَيِّرْها القيظ، لاجل ان القيظ تكثر الوجيه.
إبراهيم: صحيح.
رضـــا: تكثر الوجيه.
إبراهيم: صحيح.
رضـــا: هاه. وارسل لي لي واحد، يوم اني ارسلتو يَمّه قلت: ايْتَه وسلِّم لي عَلْيَه وكان هي على الجواب اللي بيني وبينه فانا ابخطبه من هَلَه.
إبراهيم: نعم. واذا كان انه متغيره فالله يستر علينا وعَلْيَه.
رضـــا: وان كان هي متْغَيِّرة عسى الله يستر عَلْيَه، آه، ولا فيه لزوم. قال: مَيْخالف، لي الشرف اني اقضي لك حاجَي (= حاجه)، وهالحين بْقِصرْ البيت –هو تْخَبَر يعرفهم ويجيهم ولو (= وله) رِحْماً بَهَم، لو رِحْماً بَهَم، باهَلَه. هو مو هو من قرابتهم القريّب اللي يْشتَكّ مْنُو يعني، بس انّو هم خوالٍ لو.
إبراهيم: خوالٍ له.
رضـــا: يدَّعي هم خولتو. هو بْقِصرَهم بعد.
إبراهيم: جارٍ لهم، اينعم.
رضـــا: وجارٍ لهم ولا عندو مري هو. يْسَمُّونو هكالوقت "صمل" –عند البادية اللي ما عندو مري يْسَمُّونو "صمِل" بيت يعني من دون مري. ونازل بْشَنَقْهَم وتشتغل لو هي وْيَا خواتا (= خواتَه) وهذا.
إبراهيم: يعني يسوّن لو عشاوه ويخدمنه.
رضـــا: يسوَّن لو عشاو (= عشاه) وْيَخَدْمنّو (= ويخدمنّه) ويْرَوَّن لو (= له) ما. بِجْوارَهَم.
إبراهيم: شف! على نقا وشرف.
رضـــا: ايه على نقا وشرف اينعم –هاه. راح يوم انّو راح وْلا ادري عاد وشّو قال، لكن الطالع لي يوم انّو واجهن قال: يافلان رفيْقتَك متْغَيّري. قلت: متْغَيّري؟ قال: نعم. قلت: وشْ مَرَدّه عليك؟ قال: مَرَدّه علي تقول: الله خلق المغازي والنكايف. قلت: طيّب انا لْيا هالحين غَزّاي ما انكفت. قال: هي منْكْفي. قلت: ما نشَدْتّه [ما] قلت [له وش] الاسباب؟ قال: بلى، ما خَلّيت عْنَه شين، تقول: انا صح انّي عَطيتو جواب شْمام بغِيّي –بغِيّة يعني لوخوذ (= الزواج)، ما هوب غيرو (= غيره)، ولكن يوم انّي نشدت عْنُه –انا ما ابخص وش مَعو (= معُه).
إبراهيم: ايه، والى عندك زوجه!
رضـــا: وليا عندو زوجَي والى صار عندو زوجَي ما يوالمن. انا اللي عندو زوجي ما يوالمن. قلت: طيّب تدري ان عندي زوجي!
إبراهيم: هي يمكن تعرفك قبل الرجال هذا.
رضـــا: تَعَرْفَنْ ومْعَلّمَه ان عندي زوجي، وقالت ما عليّ من الزوجة، حَمْلَه عليك لو عِنْدَك يعني ثلاث نسوان، أصير رابْعَة لهن. هذا هي تقولو قبل.
إبراهيم: هذا كلامه شْمام.
رضـــا: شْمام. ولكن هذا جاب لي هالجواب التالي. قال انه تقول: غَشّن [رضا] شْمام يقول انا

باخْذِك وانا ما عندي احد. ويوم اني نِشَدْتْ لْيا مار ثاري عندو زوجي، وثاري لو وغدان. وانا ما يوالمن يعني الرجل اللى عندو زوجي وعندو وغدان! اي بالله لا بالله الله يستر علينا وعليه. [انا يارضا] زِعِلْت –تْخَبَر الرجال الصدوق ليا قيل لو الجِواب يْصَدِّق . . .

إبراهيم: صحيح.

رضـــا: زِعِلت. يوم اني زعلت عَلْيَه تركت الماضوع. اوّل كان اسيّر يم ناحْيَتْهَم واتعدّى اللي من دُوْنَهم واروح لْناحْيَتْهَم. يعني تَجِذْبَن رَغْبِتي يَمَّهَم.

إبراهيم: نعم. وهالحين تركت جهتهم كله.

رضـــا: وهالحين كل جهتهم، كله، غيّرت الموجي. ما اتوجّه يم ناحيتهَم ابد. خَذيت ما خَذيت وقت، صار الما اتلى الوقت رِدِي.

إبراهيم: والارض يمكن ما هيب على اوّل.

رضـــا: مِي هِي على اوّل. وْجِفتنا حِنّا ياهل البعير، وْلا ظل بالارض الا هل الغنم.

إبراهيم: هل الغنم.

رضـــا: ايه. وْهُمْ غَنّامي.

إبراهيم: ايه. هم اهل غنم.

رضـــا: اهل غنم.

إبراهيم: وانتم اهل ابل.

رضـــا: وحنا اهل ابل. تَحَدَّروا جماعتنا اللي انا استانس عندَهَم ويستانسون عندى. تَحَدَّروا، وين تَحَدَّروا هكالوقت؟ تَحَدَّروا للعراق. يْهَوّرون.

إبراهيم: جهة العراق.

رضـــا: لجهة العراق.

إبراهيم: يم الهور.

رضـــا: يم الهور، وقت الصفري، بَعْد طْلوع سْهيل. هذا يصير الهور بو مِصْفار وْيِقْفِيْ حِرْم العراق، الزريقي هذا اللي يذبّح البل، لْيا برد اقفى شَرّو. راحوا. بقيت انا وهلي، واسيّر عليهم [على اهل البنت] هكاليوم. ولْيا مير اخوٍ له شروى الحضور . . .

إبراهيم: شرواك الطيّب.

رضـــا: راعي ْقـهَوي وهذا. وانا اسيّر عليه هكاليوم –كل اللي من ثْلاتِنا والتهي بهم من قبل رْحَلوا.

إبراهيم: ولا بقي الا انت وهم.

رضـــا: ولا بقي الا انا وْهُم. واهل الغنم اللي مِتْخَلّفي. هل الغنم ما يِنْحَدْرون. واسيّر عليهم، قال [اخو البنت]: آه يابو طارف. حيّاك الله، مِبْطيٍ عنا ولا عِمْرَك جِيتَنا! قلت: والله انا الْتهي، وفيدة اللي يقول: بالقيظ منازل، يا حال من دونَك بيت عِدَّك ميت. يوم ابي اهوم اسيّر يَمَّكَم لْيا مير بيني وبينَكم ميَّة شَبّاب. اليوم عاد جِيْتَكم، رْحَلوا جِماعتي. قال: انت وين تبي تَدْوي؟ قلت: والله ما ادري حِنّا يمكن لْيا منّه وَرْدْت البل نبي نحول نتبعهم لأجل ان راع البل قام يشتكي والبل تفَلّت [من الراعي] والوي (= ألوت= ضمرت وهزلت). والقاع محل، ويمكن نتبعهم [الجماعه] والله غْصَبٍ علينا. ايه [كنت انا واخو البنت نحكي] بها لسوالف [ويوم انتهينا] رِجَعْت لْهَلي.

إبراهيم: هي [البنت] يمكن تسمع الكلام.

رضـــا: ايه. بالبيت، بيت شَعَر –طال عمرك– وبالرفّي (= الرفّه) وتسمع الكلام. يوم اني رِجَعْت لْهَلي وجيت هَلي ونِمْت بالقايلي (= القايله) تقريب الظهر ولْيا مار تزهمن اختٍ لي. [قلت] وش

فيه؟ قالت: واحدٍ بهذا مْسَيّرٍ علينا وْيَبيك. انا بْبالي انّو رجِل يوم اني نهضت راسي ولياه هي مْسَيّرِةٍ على هلي. كل هالقيظ ما جتنا، هي نوب (= بس هالمرّه هذي)، وْلا وَجّهت يم ناحيتنا. ولكن يوم سَمْعت جوابي انّا نبي نحول ليا وَرْدْت البل تَرْيا تِضايِقَي (= تضايقت) وْوِدَّه انَّه تتِّصِل بي.

إبراهيم: واللي أنت مْوَصّي ما صار كلامه صحيح؟.

رضـــا: لا. ما صار صحيح. لو هو صحيحٍ ما جَيْ (= ما جَت). سَلَّمْت عَلْيَه، يوم انّي سَلَّمْت عَلْيَه [قلت] غريب جَيِّتك هذي! قالت: والله لو ما سمعت اليوم انَّكم تحولون ان ما نيِّتي اجي. الموجب انِّي زَعْلة عليك. قلت: هذا اللي يقول: ناطح الصياح بصياح وتسلم؛ وش مزِعْلك؟ قالت: مزِعْلَن انّك عطيتنا جواب شمام وحنا ليا لان وحنا نرجيك ونْشوفك اصَدّيت عنّا ولا ندري وش اسباب الاصدادَي وحنّا ما انربطنا بالعهد اللي بِيْنّا وبينك انك يعني ازين الناس أو اطيب الناس لكن ربطنا الكلام اللي قلت لنا وقلنا لك، واليوم عاد نبي المقابل يطرد النحوس (= الوساوس والشكوك). قلت: طيّب، هذا يوم شفتينا نبي نحول تبين تْشَجّعِيْنّي بهالكلمي وغديك ْتحَصّلين مْني لي قصيدة أنشر لك دعايه.

إبراهيم: والا انا مرسلٍ لكم فلان.

رضـــا: والا انا مرسلٍ لكم اول المبتدا مرسلٍ لكم مرسال، وتقولون [للمرسال] ان فلان [رضا] يقول ما عندي زوجَة وتاري عندو زوجي، وعندو وغدان. قالت: مرسالك من هو؟ قلت: مرسالي فلان. قالت: مو هو صحيح. هو يجينا ويحاكينا . . .

إبراهيم: لنفسه.

رضـــا: لنفسو، يقول: كان انتي ما انتي كارهتن خوالي ما يحسدونّي وانا بَخَطْبِك من خوالي. قلت: الله يستر علينا وعليك انا هالحين مير ما ابي الرجَال. وانت [يارضا] مار ما جابك بالطاري، ما جابك بالطاري.

إبراهيم: ولا قال مرسلن فلان.

رضـــا: ولا قال مرسلن فلان ولا جابك بالطاري موليَّه. أنا هكالحين تار زوجتي مِي هِي بْبيتي والا معها وغدان لكن عند هَلَه، هَلَه ما عندهم ملفى وسامحٍ له عند هَلَه.

إبراهيم: وانت عندك اختك.

رضـــا: وانا عندي اختي مْوَلّيةٍ لي بالبيت. ولي هي عندي بعد زوجتي. مي هي عند هل الما اللي عندنا، على مانٍ ثاني. المراد تصالحنا انا وْياه، يوم انّا تصالحنا وافِقَت الرحَلي (= الرّحَله) رَحلنا. والا بان لي الماضوع.

إبراهيم: انت قلت لَه هالحين حنا وقت . . .

رضـــا: قلتُه . . .

إبراهيم: انّي واعدت . . .

رضـــا: قلت انّا هالحين . . .

إبراهيم: الى جت البل نبي . . .

رضـــا: اننا التزمنا على الرحيل . . .

إبراهيم: نعم، نبي نحول . . .

رضـــا: والى جت البل نبي نحول غَضْبٍ علينا ولكن ان شا الله . . .

إبراهيم: فيما بعد . . .

رضـــا: فيما بعد مِتْلاحْقِيْنٍ على خير. قالت: الله كريم. هاه! تَوَضَّحَت الامور، السوالف طويلي

يابو يوسف لكن عاد نْبَيِّن القصِّي وما جرى. حلْنا ويوم انّا حلْنا جبت هذي القصيدي. اول مبتدا القصِيدي مْهَاجِمْةٍ للديري اللي جفَتْنا وفَرَّقَت الاصدقا.

إبراهيم: فرقت شتاتكم. اينعم.

رضـا: وفرقت شتاتنا وابعدت بي عن هويّتي.

يـا ضـــــاق بـالـي قلـت دنّـوا ذلـولـي ... حطّوا عليـهـا كـورها والقـرامـيش
حطوا عليـهـا كـورها وارخـصـوا لي ... نبي نْمَـــضِّي وقـــتنا بالمطاريش
حنّا نوينا وانتـــــوينا نحـــــول ... من فـــوق قطّاع الْفْـرَجْ بالمغـابيش
من فـوق نَقّـالَيْ ثقـيل الحـمـول ... حْـرش المواطي مـبِـعْـدات المناطيش
قب الضلوع مْـسَـهّـلات الخلول ... يشـدن رطين اللي عليـهم طرابيش
يا شـانت الديرة لغـيـره نجـول ... تجـويل صـيـدٍ يصطفق مع نشـانيش
دارٍ جِـفَيْ سكّانهـا بالمحـول ... مـصـالحـه صـارت علينا تناويش
واخـانة الدنيـا غـدى به نْزول ... هَسَّيْ منازل مـبِـعْـدين المناطيش
اللي نهـار الكون مـثل الزمـول ... ربعٍ على الموت المصـفّي مـداهيش
يـادار وش نـوحك علـيـنـا زعـول ... تَلْحـيننا لحّـة رْكـاب الحـواشـيش
يادار فَـرَّقْـتي شِـتـات النزول ... هل الرباع مْـدَلّهين القناطيش
عـافـوا من الوجـلا قـراح الثـعـول ... ومن لو جناحٍ ينهـضـو طار بالريش
مـرحـانَهم قـامت عليـهـا تِضـول ... تحـاجل الغـربان مـثل القـرافـيش
وخـلاف ذا ياللي تجـيـبـون قـولي ... من فـوق عـيـراتٍ تذب المعـاطيش
قطم الفـخـوذ مْـعَـرّبات الاصـول ... من نسل هرشٍ مـركـزو جيش عن جيش
ياهل الركـاب ركـابكم واقـهـروا لي ... يامنتـوين ديار ضـاف العكاريش
ان جـيـتـوا اللي يطربه شـوف زولي ... اللي تْفَـتّش بسـرة القلب تفـتـيش
وش عـاد لو تاخـذ ثلاثين حـول ... مـا انساه كـود البدو تنسى المطاريش
والا الرعـيـله عن مـحـلّه تزول ... ويْغَـزّ له باجـبـال سلمى شـوابيش
اللي شـعـتني واسـتـقـيت الغلول ... خَّـده من الموت الحـمـر بِه نقـاريش
ياعين شـيـهـانٍ عـشى له بجـول ... أشـقـر يْدَمّي مـخْلبـه ينثـر الريش
عـدل المناكب للحـبـاري يصـول ... وان شـافـو الحـبـرم لِبَد عـقِب تطنيش
وسـيـقـانهـا يزهن جـديد الحـجـول ... هي نقـوتي من ناقـضـات العكاريش
ياعـود ريحـانٍ غَـذَنّه طْلول ... بِيْـفَيّ غـيْـدٍ يصطفق فـوقـو الهـيش
مـتْـهَـزّعٍ نبـتـه عَـذِيّ الشكول ... يلعب بو الغـربي على سـاحل القـيش
وارسلت للي بالمحـبـه صـفـوا لي ... غـيـر السـلام من اريش العين مـا بيش
مـرسـالي اللي مـثل جـرد السـمـول ... جـيـتـو يْجَـدَّع في طريقي حنافـيش
وْلا جـاب من نابى الردايف وصـول ... غـاد البَـخَيْ سَـدّد علي المناطيش
يـارب لا تـرزق خـطـاة الـبِـطـول ... اللي على المسلم يدوّر بخـاشـيش
اللي زعـجـتـه يَمَّـهم ترجـمـوا لي ... جـان الخـبـر من دون جـيش ومطاريش
قـالوا تَحَـذّر وانتـبـه لا تقـول ... مـا من ورا عظم الهليـمـة عـراميش
وتم الجـواب وكـمّل القـيل قـولي ... غـرايبٍ مـا ولّفـوهن تهـاليش
هذي مـضَيْ والخـاتمة للرسـول ... صـلاة ربي عـد وبل النشـانيش

إبراهيم: صَحّ لْسانك.

رضـــا: صَحّ بْدِنَك.

المناخات والأكوان

رعي الإبل هو الطريقة الأمثل لاستغلال ما تجود به بيئة الصحراء الفقيرة ومناخها الجاف من موارد شحيحة، وحياة البادية من أنجع الوسائل للتكيف مع البيئة الصحراوية إلا إنها لا تخلو من المخاطر والمجازفة. الإبل بطبيعتها سريعة العطب والهلاك حينما تجدب مراعي القبيلة في سنين الجفاف، هذا عدا كونها عرضة للنهب من الأعداء. لا بد أن يتوفر للإبل ما تحتاج إليه من الماء والمرعى، لكن هذا مرهون بسقوط المطر الذي يندر سقوطه بكميات كافية على جميع أرجاء الجزيرة العربية. في سنوات القحط المتتابعة تنفق الإبل ويتحول البدوي من إنسان يمتلك قطعان الماشية إلى شخص معدم لا يملك شيئا. وللتغلب على هذه المشكلة أمام البدوي عدد من الخيارات. فنظام القرابة عندهم يسمح بتوسيع الدائرة القرابية لتمتد من العائلة الصغيرة إلى القبيلة الكبيرة. وهذا بالتالي يعني أن أفراد القبيلة ملزمون بالتكاتف ومساعدة بعضهم البعض إما بالسماح للمتضررين باستخدام مراعي أفخاذ القبيلة الأخرى أو جمع ما يحتاجون إليه من ماشية لتعويضهم عما فقدوه. وقد تطلب القبيلة من قبيلة أخرى بالطرق السلمية أن تسمح لها بالرعي في مفاليها، وأحيانا يتصالح الأعداء لأجل الرعي ويتهادنون مدة الربيع ويتكفّل كل شيخ بكف اعتداءات رجاله ضد الأطراف الأخرى ورد كل ما ينهبونه منهم، أو كما قال لي أحد الرواة: **البدوان الى اجتمعوا على الربيع يتصالحون علشان بعضهم ما يكدّر على بعض** . وبعد أن تنتهي مدة الهدنة المحددة يعودون إلى ديدنهم في السلب والنهب من بعضهم البعض. أما إذا لم تفلح المساعي السلمية فليس أمام القبيلة إذا وجدت في نفسها القوة إلا اللجوء إلى الحرب لاحتلال مراعي قبيلة أخرى أو نهب ما تملكه من قطعان الماشية. إذا شعرت القبيلة المتضررة في نفسها القوة والاستعداد فإنها تشق طريقها غصبا **بالدبّوس والحق المنكوس** لتجتاح مراعي القبيلة الأخرى. في هذه الحالة يقود الشيخ قبيلته بقضها وقضيضها، بما في ذلك الحلال والحلّه والنساء والأطفال، أو كما يقولون: **يصول**، تشبيها له بفحل الإبل الهائج في موسم اللقاح بحيث لا يستطيع أحد أن يقف في وجهه، وذلك تعبيرا عن العزم والإصرار الذي لا رجعة فيه. وينزل الشيخ وقبيلته في الديرة التي يطمعون فيها أو على حدودها مما يؤدي إلى نشوب حرب ضروس بين القبيلتين. وغالبا ما تتم التحديات بين القبائل المتحاربة أثناء احتدام المعارك وقبل ذلك وبعده على شكل قصائد متبادلة بين الشيوخ والفرسان والشعراء من كلا القبيلتين. ومن الأمثلة على ذلك القصائد المتبادلة بين سعدون العواجي شيخ ولد سليمان من عنزة ومبيريك التبيناوي شاعر شمر والقصائد المتبادلة بين تركي ابن حميد شيخ عتيبة ومحمد ابن هادي شيخ قحطان وتلك المتبادلة بين ابن هادي

وراكان ابن حثلين شيخ العجمان.

يختلف المناخ الذي يقصد منه احتلال مراعي وموارد قبيلة أخرى عن الغزو، وقد يستغرق سنين تكون الحرب فيها سجالا بين الطرفين وتتراوح في حجمها من الغارات الصغيرة إلى المناخات الكبيرة. أساليب الحروب والمناخات التي تخوضها القبيلة مضطرة للدفاع عن مراعيها وآبارها تختلف عن أساليب الغزو. يستميت البدوي في الدفاع عن ديرته وما فيها من المراعي والآبار، ومعظم الحروب الرئيسية بين القبائل تقوم لهذا السبب، وهو ما يسمونه **مناخات** (م. **مناخ**) أو **اكوان** (م. **كون**). في المناخ تبنى بيوت الحرب ويستعد الطرفان كل بما أوتي من قوة وحشد لمواجهة الخصم، وسموه مناخا لأن المتحاربين لا يستطيعون لشدة الخطر رعي أذوادهم خوفا من وقوعها غنيمة في يد الأعداء فيضطرون إلى عقلها وحبسها في مناخاتها. ولهم تدابير وخطط حربية معروفة في هذه المناخات، منها محاولة كل طرف أن يحتل الآبار القريبة ليحرم الآخر من الماء وينزل في مكان حصين ومرتفع يستطيع منه أن يراقب تحركات العدو. وأحيانا يطلقون عقل الإبل ويقودونها إلى المرعى ليطمع بها الأعداء وينشغلون بحوزها وسياقتها ويتشتتون كل منهم يقتفي غنيمته فيشدون عليهم أهلها شدة واحدة ويدحرونهم ويستنقذوا إبلهم. ومن تدابيرهم الحربية أنهم إذا أرادوا الهجوم يسوقون أمامهم أعدادا كبيرة من الإبل يضربونها ضربا مبرحا ويشعلون النار في أذيالها ويرمونها بالحجارة من أجل أن تفقد صوابها فيشتد جريها وتدهم الأعداء وتفرق صفوفهم، وهذه يسمونها **المسيوق**. كتب محمد العلي العبيد في **النجم اللامع** عن معركة ملح التي شنها الإمام عبدالله الفيصل على العجمان يقول أن العجمان

> عمدوا الى الابل فقرّنوها وساقوها امامهم كما يفعل الحاكم اذا قابل حاكم مثله فان محمد العبدالله الرشيد قد ساق امامه الابل يوم وقعة المليدا مع اهل القصيم وفعل مثله ابن اخيه عبدالعزيز ابن متعب الرشيد يوم وقعت الصريف مع امبارك الصباح ومعه اهل نجد عام ١٣١٨ وكان الحكام يفعلون ذالك لشيئين الأول ان الأبل اذا كانت امام الجموع تحدوها الفرسان على خيولهم فانها تكون درقة للجموع عن رصاص عدوهم المقابل لهم والقصد الثاني انهم يرون انه يوجد من عدوهم الذي يقاتلهم من يوثر النهب على القتال فيكون فيهم من يطمع باخذ الابل دون القتال فيطمع بها وينشغل عن قتال عدوه وكلا الحالتين تخفف من حدة قتال عدوه له فهذه هي الفائدة المنشوده في سوقهم الأبل امام رجالهم المقاتلة (عبيد: ٥٥).

ويختتم العبيد هذه الفقرة بقوله "وهذه الهوابع والأبل عادة قديمة تجري في ايام الجاهلية في حروباتهم وجميع وقائعهم". ونقرأ في نقائض جرير والفرزدق لأبي عبيدة في حديثه عن يوم شعب جبلة أن الأحوص بن جعفر أشار على قومه من بني عامر لما داهمهم الأعداء قائلا "حُلوا عُقل الإبل واحدروها عليهم واتْبَعوا أدبارها ولْيُتبِع كل رجل منكم بعيره حجرين أو ثلاثة. ثم صاحوا بها فلم يفجأ الناس إلا

بالإبل تريد الماء والمرعى وجعلوا يرمونهم بالحجارة والنبل وأقبلت الإبل تَحْطِم كل شيء مرت به وجعل البعير يدهدي بيديه كذا وكذا حجرا" (عبيدة ٢/١٩٠٥: ٦٦١).

وحيث أن حروب البدو تقع عادة بالقرب من البيوت فإن النساء قد يشاركن في القتال إذا داهم الأعداء البيوت فيقذفنهم بالحجارة ويضربنهم بالعصي وأعمدة البيوت. كما يساعدن من يحتاج من قومهن إلى مساعدة ويجلبن لهم الماء ويضمدن الجرحى ويدفن القتلى ويشجعن المحاربين. ولا شيء يشعل الحماس في قلوب الرجال ويدفعهم إلى الاستهانة بالموت مثل تشجيع النساء وسماع الزغاريت وفتيات الحي يندبن الفرسان بأسمائهم. ولاستثارة حمية الرجال ونخوتهم إذا نشبت الحرب وحمي وطيس المعركة تقوم الفتيات الجميلات بتسريح شعورهن ويكشفن عن مفاتنهن ويشجعن إخوانهن وأبناء عمومتهن على الاستبسال في القتال والدفاع عن شرفهن. وقد يتخلى البدوي عن إبله وماله إذا رأى أن المقاومة لن تجديه نفعا، لكنه يستميت في الدفاع عن محارمه. لا يرى البدوي عيبا في التخلي عما يملك لعدو أقوى منه، إلا النساء، لأن في تخليه عن نسائه نقص من فحولته وشجاعته، إذا وصلت الأمور إلى هذا الحد تحول الدفاع والقتال إلى غريزة. يدافع البدوي عن محارمه كما يدافع فحل الإبل دون إناث الذود. وكان لهذا المبدأ مفهومه الواضح في أيام الجاهلية حينما كانت النساء عرضة للسبي مثلما الحلال عرضة للسلب. الذب عن النساء وتشجيعهن للرجال من المواضيع الأساسية في قصائد الفخر والحماس من قديم الزمان حتى عصرنا المنصرم. يقول عمرو بن كلثوم يصف تشجيع نسائهم لهم:

على آثارِنا بيضٌ حِسانٌ ... نُحاذِر أن تُفارِقَ أو تَهونا
ظعائنُ من بني جُشم بن بكرٍ ... خَلَطن بميسمٍ حسباً ودينا
أخذن على فوارسِهن عهدا ... إذا لاقوا فوارسَ مُعلَمينا
ليستلبَنّ أبداناً وبيضا ... وأسرى في الحديد مُقرَّنينا
إذا ما رُحْنَ يمشين الهُوينى ... كما اضطربت متونُ الشاربينا
يَقُدْنَ جيادَنا ويَقُلن لستم ... بُعُولتنا إذا لم تمنعونا
إذا لم نحمهنّ فلا بَقينا ... بخير بعدهن ولا حيينا
وما مَنَع الظعائنَ مثل ضربٍ ... ترى منه السواعد كالقلينا

وكثيرا ما يصور الشعراء الفرسان ما يحدثه تشجيع النساء لهم من أثر في نفوسهم مما يشحنهم بالشجاعة ويدفعهم إلى أن يضع الواحد منهم طرف كمه "ردنه" على وجهه حتى لا يرى الخطر ويهرب منه بل يلكد جواده إلى الأمام غير عابئ بما أمامه. يقول ناصر ابن عمر ابن هادي يصف حرج الموقف في وقعة جرت لهم مع أعدائهم في موقع يسمى الاميلاح. وللتأكيد على فرط شجاعته وإقدامه نجده في البيت قبل الأخير يشبه ذوده للأعداء وصدهم عن محارمه بذود فحل الإبل لنوق

الذود:

الرابح اللي ما حضر بالاميلاح ... ولا شاف لجّة خلجنا بالمراحِ
ما حطّ فوق الزمل من قشّنا طاح ... ولا شَحَنّي كود صيحة رداح
أنا ان ثنيت مناطحٍ شلف ورْماح ... وان انهزمت مغيزل العين صاح
يوم انكسر رمحي تجنّدت ابو لاح ... ردّيت للهندي شريدة سلاحي
واضرب بوسط جْموعهم لين تنزاح ... أذودهم ذو الجمل للقاح
تَهَنّ يازمل اريش العين وارتاح ... ما دام زلبات السبايا تْناحي[1]

وما أشبه هذه الأبيات بأبيات عمرو بن معدي كرب الزبيدي في قوله:

لما رأيتُ نساءَنا ... يقذفن بالمعزاء شدّا
وبدت لميس كأنها ... بدر السماء إذا تبدّى
وبدت محاسنها التي ... تخفى وكان الأمر جدا
نازلتُ كبشهم ولم ... أر من نزال الكبش بُدّا

ويقول الشعرّا القحطاني مفتخرا بفعله من قصيدة له في فرسه:

خيّال حمض المستوي والنفودِ ... بْشلفا تلظّى حاشيٍ جبّها العود
وان هج زمل مرودعات الخدود ... عَلَيّ من قرب المحاريف منقود
أردّها لعيون ضافى الجعود ... لى صار وسط الزمل عاري ومشدود[2]

وتلعب العطفه دورا بارزا في المعارك الحاسمة حيث تركب فتاة من فتيات القبيلة يحيط بها الشجعان من إخوانها وأبناء عمها القريبين يذودون عنها الأعداء ويمنعونهم من الاقتراب منها، وهي بدورها تدفع بجملها "قعودَه" إلى الأمام وسط صفوف الأعداء. العطفه، مثلها مثل الراية، هي رمز لشرف القبيلة وعزتها ومنعتها لذا يستميت فرسان القبيلة في الدفاع عنها ويعد الفرار عن العطفة عيبا كبيرا. ولا بد أن تتمتع العطفة بشجاعة فائقة لترمي بنفسها في أهوال المعركة رابطة الجأش تبعث الحماس في قومها. وكانت عطفة شمر في وقعة جراب تشجع قومها مرددة: حب الذره يالصبيان، أي أقدموا أيها الفتيان "الصبيان" ولا تخافوا من الرصاص الذي لن يضركم إلا كما يضركم من يرميكم بحب الذرة. ويمتدح الفارس شليويح العطاوي شجاعة عطفتهم في كون طلال، واسمها مضاوي، قائلا:

لا رِحْم ابو من صَدّ عن مِحرافها ... من يوم طار الستر عن مضاوي
نطعن لعين اللي تهل دْموعها ... تبكي وفي تالى البكا نَخاوي
تقول يالظفران من عاداتكم ... هوشوا عسى يبقى لكم شلاوي[3]

---

(١) الاميلاح: اسم المكان الذي وقعت فيه المعركة. قشنا: متاعنا وأثاثنا. شحنّي: حز في نفسي. رداح: أحد نسائهم. ثنيت: واجهت العدو. مغيزل العين: الفتاة تدير نظراتها مثلما تدير الظبي نظراتها ترمق غزالها الصغير حتى لا يشذ عنها. أبو لاح: اسم سيفه. زلبات السبايا: الخيل الفتية. تناحي: فيها من الجهد والطاقة ما يكفي لصد العدو وتنحيته.

(٢) المستوي والنفود: أسماء أماكن. تلظّى: تتلظّى. مرودعات الخدود: من وشمن خدودهن. قرب المحاريف: العودة من مكان قريب قبل وصول العدو. منقود: ملامة.

(٣) الظفران: الشجعان. شلاوي: بقايا.

ويقول عوير ابن طلمس العازمي يصف وقعة مطير مع قحطان، وكانت عطفة مطير في ذلك الكون اسمها الدحملية:

نطعن لعين اللي تصيح وتنخا ... مغرورقاتٍ بالدموع عْيونها
منبوزة الاوراك ضامرة الحشا ... بنت الشيوخ مضيّفه بِعْسورها
ما نيب كاميها تراها موضي ... الدحمليه كنّها من حورها

يقول قاسي ابن عضيب ابن حشر:

سلّف علينا شيخنا بالعطافِ ... محمدٍ زيزوم كتع الجموعِ
توايقن من فوق مثل الطخافي ... يرمن باصواتٍ صْلابٍ تروعِ
رمن على عوج الحنايا الغدافِ ... توايقن يبغن منا وقوعِ
تلع الرقاب معسّلات الاشافي ... لجّن لجيج الخلج تبغى التبوع

وتقديم العطفة في الحروب شرف عظيم ومسؤولية جسيمة لا يتحملها إلا نخبة شجاعة وعصبة قوية. يقول دخيل الله الشيباني، ويلقب أبو طخمة الزبلوقي، يمدح الهيضل وجماعته الدعاجين الذين لقبهم أولاد مفلح:

عطفتهم الهيضل قديمٍ وصبّار ... باولاد مفلح لابسين المقازير

وفي هذا الخصوص كتب الشيخ محمد بن بليهد في صحيح الأخبار عن مناخ عرجا ما نصه:

> إذا سارت الكتائب بعضها إلى بعض فكل قبيلة تنتخب جارية من أجمل نساء رؤساء القبيلة، وتنتخب لها جملا أوضح تضع عليه هودجا، ويحلّى ذلك الهودج بالحلل من الجوخ وغيره، ثم تركب فيه الجارية، وجميع رجال القبيلة والرماة والفرسان على خيولهم. وأهل الركاب يكونون عند هذا الجمل، والجارية حاسرة، لا تضع على رأسها ولا على وجهها شيئا، وهي واقفة تندب قومها إلى القتال وتحضهم عليه، وقد ورد عرجا من الجمال في اليوم الذي كانت فيه الموقعة ثلاثة عشر جملا، كل جمل يتبعه أكثر من ألف رجل ما بين راكب وراجل، وكانت قبيلة الدغالبة تابعين لجمل الهيضل، فلما كان يوم عرجا انفصلت كل قبيلة بجملها، حدثني رجل ثقة حضر هذه الموقعة قال: جاء مناحي الهيضل ولحق جزا أبا العلا رئيس قبيلة العصمة، فتهدده وقال: ردوا جملكم وارجعوا إلى جملنا، فقال: إنا من حين زايلنا أهلنا ونحن عازمون أن نرد به عرجا أو نرجع نحن وجملنا، فزاد بينهما اللجاج، فجاءهم الرئيس العام محمد بن هندي بن حميد فقال: لقد نشبت الحرب وأنا أشير عليك أنت يامناحي الهيضل ألا تردّ جملا يتبعه ألف رام، وإنما تكون الملاحاة والدعاوى في غير هذا الموضع، فطلب إليه أن يعدل عن هذا الطلب ذلك الوقت، وقد كان أبو العلا مصمما على أنهم لو رجّعوا جمله يرجع بقومه، فتركهم واندفع إلى خزام المهري رئيس الدغالبة فقال له: ياخزام، ما الذي حملك على أن سيرت هذا الجمل وأنتم وجميع قبائلكم الدغالبة إنما تتبعون جملي؟ فقال له: تعلم أن هذا الجمل لو رجع رجعنا معه، وكانوا لا يخاطبون خزاما باللهجة التي يخاطبون بها أبا العلا؛ لأنه في زمانه فارس عتيبة على الإطلاق، فتركه الهيضل ثم أتى ناصر بن عقيّل فقال له كما قال لصاحبه، وناصر من قبيلة الدعاجين التي رئيسها العام هو مناحي الهيضل، فقال له: اردد جملك وكونوا مع جملنا، فرده من دون منازعة (بليهد ٢/١٩٧٢: ١٢٤-٥).

وهذا النص لابن بليهد يوضح لنا أن استقلالية أي شيخ بعطفته تعني بداية

انفصاله واستقلاليته عن إمرة شيخه الذي يعلوه في تراتبية السلطة القبلية. أما محمد العلي العبيد في **النجم اللامع** فيصف عطفة العجمان في معركتهم مع الإمام عبدالله الفيصل على ملح على النحو التالي:

> وعمدوا إلى سبعة من الجمال وشدوا فوقهن الهوادج وهي ما يسمونه عطفه عند المتأخرين واركبوا عليهن بنات جميلات وكلهن من بنات رؤسائهم محليّات بالحلي الفاخر والزينه واستصحبوا كثيرا من نسائهم الخرائد وجعلوهن وسط الجموع ليندبن الرجال ويشجعنهم على القتال وينخين الفرسان على الجلاد والطعان وعلى الصبر والثبات فان الفتيان تدب فيهم النخوه والحميه على العار فكل مقاتل يرا حرمه امامه تحكم فيه الغيره فلا يفر ولا ينهزم ما دام يرا نسائه في صفه ومن خلفه هذا والفرسان محيطين بالهوادج يمينا وشمال يقاتلون قتال المستميت" (عبيد: ٥٥).

ولو استولى الأعداء على ظلة القبيلة التي تجلس فيها العطفة فإنه لا يحق للقبيلة أن تتخذ ظلة بعدها إلا إذا تمكنت من الاستيلاء على ظلة قبيلة أخرى. ولا يعادل استبسال رجال القبيلة في الدفاع عن ظلتهم إلا استبسالهم في الدفاع عن الذود الذي يعتزون به ويعتبرونه شعار القبيلة ورمز عزتها وشرفها، مثل ذود العليا للروله "**راعى العليا رويلي**" والشِّرْف لقبيلة مطير وذِرْوات للرشيد، وغيرها. والإبل في ذود العزوة متجانسة ولونها واحد، وغالبا ما يكون إما أسود حالك أو أبيض ناصع، وشيخ القبيلة هو الذي يحتفظ بالذود تحت حراسة فرسان القبيلة المعدودين الذين يستميتون في الدفاع عنه.

وفي كتاب **النقائض** يروي أبو عبيدة أحداث يوم ذي قار الذي انتصر فيه العرب على دولة الفرس بأسلوب شفهي وكأنه يدوّن سالفة من سوالف أعراب زماننا المتأخر. ولّت بكر بن وائل أمرها يوم ذي قار حنظلة بن ثعلبة بن سيّار العجلي الذي لما رأى الناس يستعدون للفرار أجبرهم على الثبات بأن قطّع الوُضن، وهي الحبال التي تُشَد بها الهوادج إلى ظهور الإبل، لئلا تستطيع بكر أن تسوق بالنساء إن هربوا، وأول ما قطع وضين ابنته مارية، فسُمّي مقطّع الوُضن. وفي تلك الحرب تولت مهمة **العطفه** قبيلة عجل وكانت عطفتهم تهزج لتحض قومها على القتال:

إن تُقبلوا نعانق ونفرش النمارق
أو تُهزَموا نفارق فراق غير وامق

ولتستفز رجال قبيلتها وتستثير فحولتهم تهزج العطفة قائلة إن الأعداء لو قبضوا عليها وبقية فتيات القبيلة فإنهم سوف يُغَرّزون فيهن الغُرَل، جمع غُرْلة، وهي جلدة الصبي التي تقطع في الختان:

إن يظفروا يحرّزوا فينا الغُرَل ايه فدى أبي لكم بني عجل

وتقول عجلية أخرى في ذلك اليوم وبلغة أكثر صراحة من سابقتها، و"القُلَف" في الشطر الثاني جمع قُلْفة وهي الغُرلة:

ويها بني شيبان صفًا بعد صف إن تُهزموا يُصَبّغوا فينا القُلَف

وشبيه بالعطفة الراية أو الشعار الذين تتخذه بعض القبائل في الحرب وتستميت في حمايته والدفاع عنه، ويسمونه المركب، وهو مثل مركب العطفة على شكل ظلة مزينة بريش النعام، ولذا يسميها بعضهم الريشه، لكنني وجدت أن شعراء الرولة في وصفهم للمركب يسمونه أبا الظهور ويسمونه أيضا عليان أو المركب. يقول خلف الأذن:

عليـــان زاع وســـمّح الله ذراعـــه قـــوطر يهـز الريش من غـــير قـــوّاد
أبا الظهـــور اللي يحـــفظ الوداعـــه مـثل صـبـاح رمـيح والطرش مـا قـاد

ويقول أيضا:

جـــــبنا حَليّ الريش زين على زين وبنت الشـــيـــوخ تْصَـدّغُـــه بالخـــزام

ويقول أيضا:

إن قِـــــدّم المركب وعنده حَـــــقَلنا كم راس شـيخٍ عن كـتـــوفـــه نشـيله

ويقول ألاويس موزيل أن الروله يسمونه أبا الدهور، –وليس أبا الظهور– ويعزو هذا الإسم إلى اعتقادهم بقدمه وتوارثهم له عبر الدهور جيلا عن جيل وأنه لم يتمكن أحد منذ قديم الزمان الاستيلاء عليه وأخذه منهم، لأن في ذلك هدما لعزتهم ومنعتهم (Musil 1928a: 571-4). وفي قول خلف الأذن "ابا الظهور اللي يحفظ الوداعه" ما يوحي بأنهم يتبركون به. والعجيب أن أبا الظهور قريب الشبه بمحمل الحج المصري والشامي وكذلك بالشكل البدائي للهيكل الذي كان اليهود يحملونه معهم أينما ذهبوا ليتبركوا به، فلربما أنه من مخلفات شعيرة سامية قديمة. وشبيه بذلك ما كانت تفعله تميم في سالف الدهر. يقول أبو عبيدة في النقائض "كانت بنو تميم إذا أرادوا القتال عمدوا إلى بعير فجللوه وقالوا لا نفر حتى يفر هذا" (عبيدة ١٩٠٥/١: ٢٥٩). واسم هذا البعير زوير، وفيه يقول مالك بن نويرة:

ولو آنســـونا بالعـــرائس غـــدوة نقـــود زويرا عـــاقـــدين النواصـــيـــا

ويقول الأغلب العجلي مقارنا "زوير"، بعير بني تميم بـ"الأصم" بعير بني عجل:

ســـاقـــوا زويريهم وجـــئنا بالأصم شـــيخٌ لنا مـــعـــاودٌ ضـــرب البُـــهم

وكان الجاهليون أيضا يحملون معهم أصنامهم وأوثانهم إلى أرض المعركة تتبرك بها وتستمد منها العون والنصر، يقول الشاعر:

وســـــار بنا يغـــــوث إلى مـــــرادٍ فناجـــــزناهم قـــبل الصـــبـــاح

وكانوا يحملون معهم قبة ينصبونها للصنم في أرض المعركة، وهذا شبيه بالهيكل الذي كان العبرانيون في أيام بداوتهم يودعون فيه آلهتهم يهوه يحملونه معهم أينما ذهبوا. وفي وقائع العرب مع الآشوريين كثيرا ما كانت أصنامهم تقع في الأسر، كما في حربهم مع سنحاريب، فيسعون جاهدين إلى خلاصها وافتدائها قبل استرجاع الأسرى من بني قومهم لأن الصنم عندهم أهم من الإنسان (علي ١٩٩٣/٦: ٦٢–٤، ٢٣٥، ٢٣٩؛ Smith1972: 36-7).

ولأهمية المركب فإن شيخ القبيلة هو الذي يحتفظ به في بيته وتحت حراسته،

مثلما كان من علامات الرئاسة في الجاهلية الاحتفاظ بمركز الرمح والقبة وصنم القبيلة (Smith 1903: 202). ولو أراد أبناء عمه أو أي فرع آخر من القبيلة الاستيلاء على السلطة وانتزاع الشيخة فإن أول ما يفعلونه هو محاولة أخذ المركب بالقوة ونقله إلى بيوتهم. وهذا ما حدث حينما استولى فرع آل مشهور من الشعلان على الشيخة وانتزعوها من آل نايف. واستنجد سطام ابن نايف بالزعيم ساجر الرفدي الذي أعانه واسترد المركب من آل مشهور وأعطاه له، ويقول ساجر في ذلك:

سطّام خلّيناه يركب على الكور عِقب العنا والكود شاف العوافي
والمركب اللي فوقه الدل منشور جانا بضرب مصقّلات الرهافِ

وإذا احتدمت المعركة يشبه المحاربون تحمسهم وتدافعهم إلى ميدان القتال بتلاطم أمواج البحر أو تدافع السيول الغزيرة المتحدرة من الأعالي. يقول عنترة:

فجاؤوا عارِضا بردا وجئنا كسيلِ العرضِ ضاق به الطريقُ

ويقول مالك بن نويرة:

فما فَتأوا حتى رأونا كأننا مع الصبح آذيّ من البحر مزبد

ويقول راكان ابن حثلين:

حنا كما سيل يطم العَدامه والا البحر لى هاج جا له تليطام

ويقول عمير ابن عفيشه الهاجري:

وقفنا كما سيلٍ تحدّر من الجبل يطم الوطا والمستوي والرفايع

ولفرض نوع من النظام وقدر من الانضباط على هذا التدافع يكون مع كل جمع من الجموع المتقابلة مدّب مهمته مساعدة القائد في ترتيب الصفوف وتنفيذ الهجوم حسب الخطة المتفق عليها. ويركب المؤدب فرسه أمام الصفوف ويركضه يمينا وشمالا لكف الخيالة المتطلعين للهجوم من التقدم نحو العدو فرادى والانتظار حتى يسمعوا قائدهم يهتف بهم ملوّحا لهم بيده: **افلحوا يالغانمين** ثم يهجمون دفعة واحدة "**تِدِكّ الغارة**" مهللين: **يالله على بابك، لا خاب طلابك**. وعمل المؤدب هذا عمل صعب لأن أكثر الفرسان يحاولون التسلل والهجوم قبل غيرهم إما إدلالا بشجاعتهم وبسالتهم أو حرصا على سبق الآخرين على الغنيمة.

ومن عادة الفرسان المعتدّين بأنفسهم لبس شارات وعلامات تميزهم "معلّمين" إما لون العمامة أو لون الجوخة أو إسوار يضعه في عضده ويسمونه مِعْضَد وجمعه **معاضد**. ويسمى هؤلاء الفرسان المتميّزين ملابيس أو مشاهير ويشبه الشعراء الفرسان في المعركة بأزهار الديدحان لأنهم يلبسون الجوخ الملون، وهذا ما قصده عمرو بن كلثوم أيضا في قوله: فوارس معلمينا. والجيش الجرار الذي يكثر فيه هؤلاء الملابيس ويكثر فيه لميع السيوف والرماح يسمونه نمرا تشبيها لهذا الجمع بالنمر في الجرأة، أو رقطا تشبيها لها بلون فروته المرقّطة. وقبل انتشار الأسلحة النارية الفتاكة السريعة التعبئة والمتعددة الطلقات كان سلاح البدو التقليدي، من سيف ورمح وخنجر وطاسة

ودرع وفرس، يتيح الفرصة للفارس ويفتح المجال أمامه لاستعراض فروسيته أمام الحشود والادلال بشجاعته أمام العدو والصديق دون أن يكون عرضة لرصاصة طائشة تأتيه من حيث لا يحتسب وتودي بحياته. ولقد عبر محمد ابن هندي عما أحدثته البندقية من آثار مدمرة على ممارسات الغزو وقيم الفروسية في هذه الأحدية:

ضرب الموارت ما بها نوماس حذفة شرودٍ من بعيد[1]
عَلَيّ قضب عنانها والراس والله يدبّر ما يريد
عليّ بالليّ تبعد المرواس والعمر لزما انه يبيد

والبدو يعشقون هذه المبارزات وتثيرهم هذه المشاهد لأنها تمنح الفرد فرصة ليبرهن على شجاعته وإقدامه ويفتخر بذلك أمام الجميع ويحتل مكانه بين الرجال ويقولون عنه إنه **يستاهل الفنجال**. وأمام هذا الحشد من **الرجال الغانمين** من كلا الطرفين لا يستطيع أي واحد من المتبارزين أن يقول إلا الصحيح. يقول بوركهارت:

> إذا تقابل جمعان من فرسان البادية وبينهما عداوة، ولاحظا من بعد أنهما متساويان في العدد، يقفان متقابلان تفصلهما مسافة رمية البندقية، ويبدأ النزال على شكل مناوشات فردية بين فارسين من الطرفين. يخرج الفارس من صفوف قومه ويركض فرسه باتجاه العدو ويصيح بأعلى صوته "وين فلان ياهل الخيل؟". إذا كان غريمه الذي نوه باسمه حاضرا ولا يخاف منازلته في الميدان تقدم إليه وقبل التحدي" أما إن كان غائبا يجيب عنه قومه بأنه غير موجود. فيقول من يطلب المبارزة "وانت ياراعى هالصفرا، من انت؟" فيجيبه "أنا فلان بن فلان" وبعد أن يتعارفا على هذا الشكل تبدأ المبارزة، ولا يسمح للآخرين بالمشاركة في هذه المبارزة الفردية، ومخالفة هذا العرف تعد غدرا وخيانة "بوق". أما إذا انقلب أحد الفارسين على عقبيه وفر باتجاه أصحابه فإن لهم الحق في المسارعة لإنقاذه وحمايته من الفارس الآخر الذي بدوره يصبح محاطا بفرسان قومه. وبعد هذه المبارزات التي تتم بين أَمْيَز الفرسان من الطرفين، تختلط الجموع وتحتدم المعركة وإذا ما قابل البدوي على أرض المعركة رجلا يعرفه من الأعداء ولا يريد قتله يقول له "ابعد عنّي لا تبلاني بدمّك" (Burckhartd 1831/I: 306-7).

أما إذا لم يرغب الفارس في قبول التحدي وجبن عن ملاقاة العدو واندس في صفوف قومه، فإن فارس الميدان يطلق ضحكة عالية يسخر من ذلك الذي جبن عن لقائه ويعيره ويعيب عليه. وسوف يذيع للناس خبر هذا التحدي ونتيجته. وتخلّد مثل هذا المواقف المثيرة في سوالفهم وأشعارهم.

ولكل فارس عزوة أو نخوة مميزة يعرف بها ويصيح بها بأعلى صوته عند احتدام المعركة ليرهب الأعداء. وقد يعتزي الفارس بأخيه أو بأبيه أو بفرسه أو بموقف بطولي سبق أن سجّله. وينتخي الفارس بأعز ما عنده مثل ماله ممثلا في ذوده "**خيّال قطنه**"، "**راعى البويضا**" أو عرضه ممثلا في أخته "**أنا اخو سمرا**". وإضافة إلى العزوة الفردية هناك عزوة جماعية تعتزي بها القبيلة في المصادمات الحربية. يقول أنيف بن زبان النبهاني:

---

(١) **نوماس**: عز وشرف.

فلمـــا أتينا الســـفحَ من بطنِ حـــائلٍ بحـــيث تلاقى طلحُـــها وســـيالُـها
دعـــوا لنـزار وانتـــمـــينا لطيء كـأُســد الشـرى إقـدامُـهـا ونزالُـها

ويقول مالك بن زغبة الباهلي:

وندعـو بني كـعبٍ ويدعـون مِـذْحَـجـا وكـــــعب ترَمّى يوم ذاك شطورها

ويقول دليم الطر:

ليـا اعـتـزينا عـزوة المزحـمـيـه نـادى مـنـاديـهـم ألـى آلاد حـطّـاب

وكثيرا ما ينذرون النذور على قتل العدو الذي يطلبونه بثأر أو الذي يكثر فيهم النهب والسلب "**يالله بفلان وفاطر**". ومن يتعهد بقتل فارس معين "**يشرب فنجاله**" وينفذ ما تعهد به يحصل عادة من شيخ القبيلة أو العقيد على "وِجَب"، والوجب عبارة عن جائزة من الخيل أو الإبل التي يكسبونها من الأعداء، كما أنه يفوز بسلب القتيل وسلاحه وزاملته. وأحيانا يكون الوجَب مضاعفا لمن يقتل العدو، أو كما يقولون: **اللي يَعَثْرُه له مِضراب ومِطلاع، له وِجَبين، ناقتين ياخذهن على عينُه**. مِضراب ومِطلاع أي جائزة عن مضرب الشلفا في جسده وجائزة عن مظهرها من الجهة المقابلة من الجسد. في سالفة هذلول الشويهري التي سجلتها من قبيلة السويد نجد هذا المقطع من السالفة قبل اللقاء المحتوم بين هذلول ومن معه من الغزاة وبين العواجي وجماعته الذين كانوا يتربصون لهم على مورد كحله:

> ويْعَمَل القْهَوَة العْواجي. يوم زْهَبَت، وهو يصب هكالفنْجال قال: هذا فنْجال الشويهري، يامن يَشْرَبْهُ ولُه خمس من رْكاب الغزْو، يْتَخَيَّرْهن على عينُه، وِجَب لُه، والا جمَل اللّحاوي، هو بالخْيار. يا هْنا واحْد يْقال لُه رجا البوهي من القَرَاوْعه، من قوم العْواجي، رَجَّال طَيِّب وْعَديم وْبُه مِعْضَد، يحطُّون مَعَاضد بالفرَّيس اوَّل، سَنَع معْضَد، بُه شَناشل. يا مير تيكٍ ما هو هَيِّن. هذا عِرْض صَدْرُه وْعِرْض جَرايْد ايديه. قال: سِقْ الفنْجال جايّ! عَطَن ايَّاوْه! انا اشْرَبُه. قال: تسْتاهل – كَفُو، طَيّبين هم، نَدْخَل على الله عَنْهم– وهو ينْطيه الفنْجال، يسوقُه عليه ويْشْرَبُه. قال: اسْمَع يالبوهي، تَرَى ما هي بسيْطه الدَّعْوى، تَرى اللي قدَّامك هذلول. قال: ازْهَلُه، يْعين الله عليه.

وإذا كان مع المتحاربين رجل يحمل بارودا ويجيد إصابة الهدف نخوه لينزل ويختبئ وراء شجر أو حجر ويصلي الأعداء بنار باروده ويصد هجومهم. ومن تدابيرهم أنه إذا كر الفارس يتمترس خلفه رماة قومه ليصدوا عنه هجمات الأعداء ويكون خلفه واحدا أو أكثر من رفاقه يحمون ظهره إذا أسند، أي إذا فر. ذكر لي حامد ابن مغنام الرويلي:

> حزيل الرعوجي وسميط ابن قنيفذ من فرسان المهيد، فرسان مشهورين يلقّبونهم التّرنه. هالاثنين هم مسند تركي ابن مهيد، يَزْبنهم. إلى اسند ينطحون الخيل المغيره عنه يما يْتَنَفّه. عاد يوم ان خلف الاذن جدع تركي نخى حزيل لما حالوا بينه وبينه. فرّيس الروله حالت بين حزيل الرعوجي وسميط ابن قنيفذ وبين تركي ابن مهيد وعجزوا يظهرونه، كْتفَوا من دونه الروله.

وهذا شاهد ننقله عن ابن بليهد يعطينا فكرة عن حربهم وقتالهم وعن كرهم وفرهم إذا التحموا في المعركة. يقول ابن بليهد في سياق حديثه عن محمد ابن

هندي:

حدثني رجل من فرسان المقطة قال: كنا قرب ماء عروى، وجاءنا خبر أن قنيفذ بن لبدة رئيس آل سعد من قحطان، وهو من الفرسان المشهورين، نزل عند جبيل سوفة . . . فقال (ابن هندي) لقومه: إن الله أخرج هذا الفارس من جباله ومن بلاد قومه وليس معه إلا شرذمة قليلة، وقد عزمنا أن نغزوه بكوكبة من الخيل لعل الله أن ينصرنا عليه فنقتله، فقال له رؤساء قومه: أرسل من يرتاد لك الخبر، فبعث حضريا من سكان قرى العرض، فقال له: اعرف لي منزله، وكم معه من الخيل، فقصده الرجل واستضافه، وكأنه ينشد ضالة، فلما رجع إلى ابن حميد قال: وجدته وليس معه من الفرسان إلا عشرة، قال: هل تعرف منهم أحدا؟ قال: أعرفه وأعرف أخاه منيفا وضويحي وجديع آل الجرو من قحطان، فقال: هؤلاء الأربعة يعدلون أربعين فارسا، ولكني سأسير إليهم بستين فارسا من باب الاحتياط، فمشى بستين فارسا كلهم على صهوة جواده، ومعهم ركاب تحمل الماء والكلأ للخيل، فأغاروا عليهم بجانب سوفة وهم حلول: المرأة منهم تبني الخباء، والرجل عند إبله أو جواده، وكان قبل أن يسير من عند أهله قال: عُدُّوا لي الرماة، فإني أحببت أن آخذهم، وأمرّ بهم على طريق قنيفذ في المعركة، فيرموه بالبندقية قالوا: نعرف هضال بن درية الذي ينزل الأروى من شعاف الجبال وهي تعدو لا تخطئ سهمه، والثاني ابن خشيبان، والثالث طريخم بن حريش من الشلاوى، فجمعهم وأخبرهم بحاجته، فاضطلعوا بها وكل قال: إذا رأيته قتلته، فأخذهم معه، فلما شن الغارة بجانب سوفة واجتلدت الفرسان أخذ الرماة ووضعهم في موضع وقال لهم: سأستطرد له وأمرّ به عليكم، ولكن اجتهدوا في قتله، فلما اجتلدوا انهزم ابن حميد ليمر به على الرماة، فتبعه قنيفذ يريد قتل ابن هندي، وكانت هزيمته حيلة لم ير منها فائدة؛ فمر على هضال ولم يرم، ومر على ابن خشيبان ولم يرم، فالتفت ابن هندي إلى قنيفذ فرمى رمحه قريبا من ظهره، وصاح يزهم طريخما أعني ابن حريش ويومئ إليه بيده، ويقول ارم ارم، ثم ترك التنبيه على الاسم، وقال ارم ياشلوي باسم القبيلة، فلم يرم، فالتفت إلى خيله فقال: امنعوني من هذا الفارس، وكان زايد بن حريميس من فرسان الروقة يسمعه، وهو من الفرسان التابعين لابن حميد، فجاءه مسرعا عرضا، فضرب قنيفذا برمحه على قفاه وأذنيه، فشرم إحدى أذنيه، وجرح مؤخر رقبته، فصاح قنيفذ وزاد جلادة، وقال: الكلب لا يغلث حتى تقطع أذناه، وهذه قاعدة عند الأعراب في كلابهم، إذا أحبوا أن الكلب تزيد حمايته للبيت قطعوا أذنيه ووضعوها في تمر حتى يأكلها. (بليهد ٢/١٩٧٢: ١٢١-٢).

وكان ممن حضروا مناخ الحرملية من فرسان عتيبة غايب ابن معية من قبيلة العصمة الذي حدّث ابن بليهد عن كيفية مقتل محمد ابن حشيفان من رؤساء قحطان قائلا:

لما انهزمنا كان رئيس قحطان محمد بن حشيفان على فرسه المشهورة، وعليه جوخة حمراء، وهي عادة الفرسان في المعارك، يلبسون شيئا يمتازون به على غيرهم، وكان على أثر العتبان، بيده سيف، ومعه رمح، فإذا لحقهم قريبا أخذ يجالد بالسيف، وإذا بعدوا عنه أخذ يرمي بالرمح، فقال مزيد بن مغيرق من قبيلة العصمة وهو من الفرسان ومن الرماة لأصحابه: إني قد عزمت على قتل هذا الفارس الذي أهلك القوم، ومع مزيد بن مغيرق بندقية من الصمع فأعدّها ومال بجواده، وأخذ يراقب غريمه، فلما حانت له الفرصة انتهزها، وسدّد بندقيته إليه، فكان فيها حتفه، فسقط عن جواده، وأخذ مزيد الجواد، وذلك أكبر شاهد له على أنه هو الذي تولى قتله، فلم ينازعه في جواده أحد، وهذا الجواد من أعرب خيل نجد وأكرمها، واسمها الطرقاء (بليهد ٢/١٩٧٢: ١١٣).

وإذا كان من بينهم فارس معروف بشجاعته نخوه ليثني دونهم ويكف عنهم القوم ويحمي ساقتهم ويستردف من قتلت راحلته وسقط أرضا، وصاحب الراحلة الهزيلة "المنقطعه"، "المنتلّه" أو الفرس التي لا تقوى على الركض السريع "الرديّه" ينخى من يتوسم فيه الشجاعة لينجده "يظهره" ويصد عنه الأعداء "يثني دونه". وليستحثوا شجاعة الفارس ويحظونه على النزول والتصدي للأعداء يعدونه بأنهم سوف ينقلون الخبر لفتاة أحلامه: **حوّل لعيون فلانه والعلم مردود**. هذا هو الموقف الذي يبرهن فيه القائد على حسن تدبيره ورباطة جأشه والفارس على شجاعته ويفعل الأفعال البطولية الجريئة التي يخلدها الشعراء في قصائدهم ويرددها رواة المجالس في سوالفهم. تَدَبّر هذه القطعة "السالفه" ننقلها عن الشيخ ابن بليهد وهي تصف مشهدا من مشاهد مناخ الحرملية بين عتيبة من جهة وبين مطير ومن معهم من القحاطين من جهة أخرى:

> انهزمت في أيام الحرب الأولى المطران والقحطانيين هزائم يسيرة، وفي بعض هزائم المطران مر فيحان بن زريبان رئيس الرخمان من مطير على ضيدان العارضي مذبوحة راحلته، فعرف فيحان بن زريبان فقال بعدما ندبه: لا تتركني، وضيدان المذكور من أرمى أهل زمانه بالبندقية، فعرف فيحان ضيدان، وقال: اركب، فلما استوى على ظهرها رماها رجل من رماة العتبان، فسقط الاثنان مع سقوط الراحلة، فمشيا على أقدامهما، فالتفت فيحان بن زريبان إلى ضيدان العارضي، فقال: ياعمري عمراه، خشية من القتل، فقال له ضيدان: لا تخف ما دام في حزامي رصاصة واحدة، فتقدمهم رجل من آل محيّا على جواده، فرماه ضيدان فجندله، وما لحقهم من الخيل رماه، فقدمهم رجل يقال له "فلاج البراق" من جماعة ابن ربيعان من الروقة، فسد الثنيّة، ومعه بندقية، فجلس له ضيدان، فضربه برصاصة من بندقيته، وهي من الصمع، فيما بين عينيه فجندله، فاتسع أمامهما الطريق، وانفرج لهما فسارا حتى وصلا أهلهما على ماءة الحرملية، فقال فيحان بن زريبان أبياتا نبطية يذكر فيها قتل راحلته ويذكر ما أصاب ضيدان ببندقيته (بليهد ١٩٧٢/٢: ١١١-٢).

وهذه قصيدة فيحان ابن زريبان يسندّها على شخص يدعى بهيشان:

لى واحسايف فاطري يابهيشان ... ردّيتَها والجيش غادٍ حَطيبه
عرضتها قهموز خيل ابن ظلفان ... هل العزاوي والرماه العطيبه
ردّيتها لْمْنَجّي الحرد ضيدان ... ما نيب من بالضيق ينسى صحيبه
رديتها في ساع زوغات الاذهان ... أخاف عِلْمٍ بالمجالس حْكي به
قلت استريح بكورها يابو سلطان ... والقوم مع هكالثنايا حطيبه
وصيبت وغطّانا من الملح دخّان ... وعجٍّ كثيرٍ ما تشوف الضريبه
قال ابتهج بالنصر يابن زريبان ... الطير يبشر بالعشا من عتيبه
يازين ذبحه والمَلَح له تِرِنّان ... لابن مْحَيّا عند خشم الجذيبه
خذنا العوض فيها جوادين وحصان ... وفلاج بالرقّه وراهن رمي به
نرمى العشا للضبع والذيب سرحان ... أيام بالمرّوت يرفع قنيبه[1]

(١) **حطيبه**: الجلبة التي تحدثها الإبل والخيل في سرعة فرارها وهزيمتها. **الرماه العطيبه**: من لا يخطئون الهدف.

يافاطري ما اطريت بيعك بالاثمان بيعك بيومٍ ما تِشاوى صويبه

وهذه درّة أخرى من درر ابن بليهد يسجل فيها مشهداً من مشاهد مناخ الجنيفاء بين عتيبة ومطير، وهو المناخ الذي قتل فيه فارس مطير الشهير تريحيب ابن شري ابن بصيص:

> فلما قربوا من خيل مطير إذا هي قد استعدت للجلاد، فكانت ميمنة مطير هي التي تلي ميسرة العتبان وفيها تريحيب بن شري وجملة من فرسان قومه وفيها طامي القريفة وهو فارس مقدام رامٍ بالبندقية، وقد اتفق مع تريحيب أن يكون هو على جانب فإذا هُزمت الخيل فهو يحفظها، ومن اعترض أو أسند رَمَيْتَه بالبندقية، حدثني فارس من عتيبة شهد هذه الغارة الأخيرة قال: لما اختلطنا بهم وعرفنا أنه تريحيب منحناه أظهرنا، فندب بعضنا بعضا، فأسند شبيب بن حجنة، وهو من الفرسان والرماة وبندقيته صمعاء، فلما اعترضت جواده رماه طامي القريفة ببندقيته فقتلها، فنزل وسار على قدميه، وندب فرسان قومه، فأدركه سرحان بن ثويمر من رؤساء المقطة على جواد عريب، فانهزمت خيل عتيبة، وكان معهم رجل يقال له غايب بن معية على حصان، وهو من قبيلة العصمة، فكأن الحصان انقطع به، فرفع صوته يندب شبيب بن حجنة أدركني، فقال شبيب لما سمعه لابن ثويمر: اردع الجواد، فأبى خشية أن يصيبها مثل ما أصاب جواد شبيب، فلما مر بحجر قليل وظن شبيب أنه يخفيه نزل، فكمن في وسطه والخيل قريب، أولهم صاحب الحصان والذي يليه طامي القريفة على جواد حمراء، فرماه شبيب بن حجنة فأصابها، واختفى طامي خشية أن يقتله شبيب لأنه يعرفه من الرماة، وكلما جاء صاحب فرس ووقف عند طامي لإركابه رماه شبيب فقتلها، فقتل أربعا من الخيل في موضع واحد، حتى نجا صاحب الحصان (بليهد ١٩٧٢/٢: ١١٧-٨).

وحينما تجد القبيلة نفسها أمام قوة لا قبل لها بها فإنها تعمد إلى الحيلة لتغطية انسحابها أمام القوة المهاجمة حتى تستجمع قواها أو تحصل على العون والنجدة من أبناء عمهم أو حلفائهم. ومن الحيل المتبعة أن يربطوا الكلاب لتبقى في مكانها في مخيم القوم المنسحبين تنبح طوال الليل ويتركوا عددا من الفرسان على خيل أصيلة وسريعة الجري ليوقدا نيرانا ليتوهم المهاجمين أن القوم ما برحوا مكانهم، وعند الفجر يركب الفرسان الذين تخلفوا لإيقاد النيران خيلهم ويولّوا هاربين. وترسل القبيلة لطلب النجدة من أقرب القبائل لها نسبا مذكرة إياهم بمسووليتهم في الدفاع عن بني عمهم. ولهم طرق خاصة في استثارة همم من يطلبون منهم أن يساعدوهم وذلك بأن يقلدوا مطية الرسول الذي يبعثونه لهم قطعة من القماش الأسود، وهي عادة قطعة من بيت الشعر "**يقلّدون الذلول شقّه**"، ويسمون هذا الرسول **المِسْتْغَرِي**، لأنه يستحث غيرة أولئك ليهبوا لنجدة أبناء عمومتهم. ويصف شاهر محسن الأصقه المطيري هيئة المستغري قائلا "والحالة التي يجب أن يتصف فيها المستغري هي أن يصل إلى بيت الشيخ المستغاث به وذلوله في حالة جري وأن تكون حالته غير منظمة المظهر وتبدو على ملامحه القلق والتوتر وأن لا يتناول الوجبة الحاضرة عدا فنجال القهوة وأن تكون جلسته في حالة تحفز ولا ينتظر أكثر من شرح الحالة وأخذ الرد"

الحرد: الفرس أو المطية لا تستطيع الجري والهرب. **الجذيبه**: الجبل أو المرتفع. **الرقه**: الأرض اللينه. **قنيبه**: عواؤه.

(مطيري د. ت.: ٨٧). وإذا لم تكتف القبيلة المحاربة بإرسال شخص واحد لطلب المساعدة وأرسلت وفدا من عدة أشخاص فإنهم في تلك الحالة يسمون شلالات والكلمة مشتقة من الشل وهو السير السريع. ومن المواقف التي سجلتها دواوين الشعر النبطي في هذا الشأن ما ذكره منديل الفهيد في الجزء الأول من مجموعه حيث يقول "أما الشيخ شافي ابن شبعان شيخ قبيلة بني هاجر فعندما حصل بينه وبين قبيلة العجمان خلاف، أركب للشيخ محمد ابن هادي شيخ قحطان يطلب النجدة، وقلد الذلول هملا وهو نوع من الهرس تستعمله البادية لطلب النجدة من القريب فإن أراد المرسول إليه مساعدتهم قطع القلادة من الذلول، وإن اعتذر تركها، وقد أرسل شافي مع الذلول وراعيها هذه الأبيات يذكر فيها أن جنبا تجمع بني هاجر وعبيدة من قحطان ويذكره أنهم أقرب لبعضهم" (فهيد ١٩٧٨: ٣٠٠؛ انظر أيضا فهيد ١٩٩٥: ٥٣). ويقول سعود بن محمد الهاجري أن الذي قال القصيدة هو الشاعر دغش ابن سالم ابن حامد الهاجري من الكدادات قالها على لسان الشيخ شافي ويوردها مع بعض الاختلاف والزيادات عن رواية منديل (هاجري ١٩٩٩: ٢٣٦). تقول القصيدة:

ياراكب حمرا غشاها سحامه — ترعى الزهر لين الشحم فوقها زام
فوقَه صْبَيٍّ ما تَغيّر كلامه — بِدّي الخبر يم الرفاقه بالاولام
ملفاك ابن هادي مقدّى الجهامه — راعى البويضا اللي على الحرب عزّام
وعدّه لابن شفلوت راعي الشهامه — شيخ الشيوخ متيّهٍ كل مرزام
ياجنب تركّوا الرثا والرخامه — احموا لنا من قبل حل التندّام
صبيان قحطانٍ غشاهم ملامه — ولها على صبيان جَنْبٍ تِلمْلام
حنا كما مايح ثمانين قامه — هيما وفي جيلانها تسعة اهيام
ما يظهر المايح من اقصى مقامه — إلا جواذيبٍ وربعٍ وخدّام
إن كان جذّابه ونيٍّ عظامه — يقعد بْغِلّه في قليبه ولا قام
حنا شْوَيّ وحاميتنا القرامه — قَطّاعةٍ نِنطح ولو كَمّلوا يام
أرماحنا وسط المدينه علامه — مع الصحابه حاربوا ذيك الايام[1]

وقد كان لهذه القصيدة ردود فعل متباينة عند الأصدقاء والأعداء، إذ رد شيخ قحطان محمد ابن هادي مستجيبا لطلب الشيخ شافي ابن شبعان، ثم رد شيخ العجمان راكان ابن حثلين متهددا شيخ قحطان منذرا إياه من مغبة إقدامه على مساعدة بني هاجر، ثم رد فراج ابن ريفه القرقاح القحطاني على قصيدة راكان متحديا قبيلة العجمان، كما أرسل الشاعر عبلان ابن مصرا العجمي قصيدة إلى نجران يستنجد فيها بقبائل يام حينما علم بأن قحطان سوف تهب لمساعدة بني

(١) **مرزام**: الناقة ترزم، أي تحن بصوت مرتفع. **حنا كما مايح** . . . يكني بذلك مجازا عن ما هم فيه من مشقة ومكابدة للأعداء. يقول الشراح إن المقصود في البيت الأخير جدهم سلطان العبيدي قاتل مع الصحابة وذريته آل محمد من قحطان والمخَضّبه من بني هاجر.

هاجر ضدهم (فهيد ١٩٧٨: ٣٠-٢؛ هاجري ١٩٩٩: ٢٣٦-٤٣). وهذا يبين لنا دور الشعر التعبوي في هذه الحروب القبلية.

وفي الحروب القبلية الكبيرة التي يقودها شيخ العموم لا تقسّم الغنائم كما تقسم في الغزو، وإنما يشيد الشيخ مجلسا له ولأعيان القبيلة والعُقِدا ويتجمهر الناس أمام المجلس ويصطفون صفين طويلين متقابلين بينهما مساحة تسمح بمرور الأنعام المنهوبة بينهما. عندها يقوم عقيد كل جناح أو مجموعة بتمرير كسبه وكسب رجاله أمام الشيخ بين الصفين، وأي ذلول نجيبة أو فرس أصيلة أو سلاح أو أي شيء قيّم ونادر يراه الشيخ أو أحد من أعوانه في الكسب ويعجبه فإنه يصطفيه لنفسه ويترك الباقي للعقيد ورجاله ليتناهبونه، وهذا يسمونه سرب. وقد شرح لي فرحان ابن غريب الشلاقي طريقة السرب كما يلي:

> السرب يقولون هاك، شف! يقيفون صف بهذا وصف بهذا مثل من هانا الى الجبل، صفين هالخدم، الخويا، والشيخ جالس بهذا والحلال يمشي، السرب، من كسب كسيبة جابه، بعير والا أزود والا دون، ساقه مع هالسوق. هذا كان هو بغى الشيخ ياخذَه قال خوذوَه، هذا كان هو بغى ينصفه قال خوذوا بعضه وخلوا بعضه. كل شارب ومقصه. رجل يْفَلّسُه ورجل ياخذ منه ورجل ياخذ بعضه ورجل ما ياخذ منه.

ويقول:

> ويغزي ابن رشيد من هانا ويضرب على الشعلان هو هكالوقت مِصحْبٍ الروله، انت يابن رشيد، ويغزون معه. اكان على الفواعر رْعِيّةٍ هي هذي على الشط. يوم جابوا الكسب شمر ويقوم لك ابن رشيد يسرب كسبهم، الفود، يَسْرِب سَرْب، يِحطٍّ الزقرت صفّين هاللون ويسرب مع وسطهم. يمر الحلال والكسب بين الصفين والامير جالس، متراكيٍ على المركى مع خدامه واللي يدخل نْظرُه من هالكسب ياخذُه، ياخذ اللي هو يبي. إصْطِغُوا هذي، إصْطِغُوا هذيك، يا مير انت ياهالغَزّاي عندك ثنتين نياق كاسبْهن السرب ياخذون منك ناقه، حديهن، عندي انا ثلاث ياخذون حديهن، السرب هاللون.

ولا يقتصر دور النساء في المعارك القبلية على ركوب العطفة وتشجيع المحاربين أو سقيهم الماء ومعالجة المصابين منهم ودفن الموتى، بل إن النساء هن عادة رسل السلام، مستفيديين في ذلك من الشيمة العربية التي تحرم التعدي على النساء أو إيذائهن. فإذا انهزمت القبيلة واندحرت قوتها أمام جمع لا قبل لها به اختاروا من نساء الشيوخ الوجيهات اللاتي يتميزن برجاحة العقل وطلاقة اللسان للذهاب إلى شيخ القبيلة المنتصرة ليطلبن منه العفة والسماح وأن يبقي على البقية الباقية من رجالهم ويمنحهم من الماء والزاد ما يبقى على حياتهم ومن الركائب ما يحملهم إلى مأمنهم أو إلى بني عمهم، وتسمى هؤلاء النسوة وقّاعات. وقد نقلت عن أحد الرواة هذه السالفة بهذا المعنى:

> حدى السنين التومان نْزلوا البردان بشعيب الغَدَف، بعسيله، بشنق شثاثا من غاد، الى قرّب للشط، بالعراق. مقيّظين عليَه التومان والتومان ما معهم من الشيوخ احد، لا التمايطة ولا اللي غيرهم. عويندي يعني ما هو شيخ. اللي ينزل لهم ويروسهم هكاليوم زيد ابن صدعان،

رجل طيب من طيّبين التومان، وهو ما هو شيخ، لكن يروس التومان الماجودين، مخلّط من التومان. وعلى هالجو هذا غزى عليهم العاصي الجربا بشمر هل الجزيره، غزى عليهم يبي ينوّخهم وياخذهم. صابوره ألف وخمسمية الخيل. خمسمية خيال والصابور ألف، جيش. كان قبل عادات العرب الى انضاموا شافوا ان قْبلاهم اقوى منهم يرسلون لهم نسوان يسمونهن عمّاريات أو وقّاعات. اركبوا بنت زيد ابن صدعان وجَضْعه بنت ابا الخَلْف، عماريات عليه، وقّاعات عليه، انك تِعفّ عنا، مثل الجاهيه علشان يعف عنهم. ولا عف عنهم. العماريات يصحن: وين العاصي؟ وين رجالي؟ وين شمر؟ الذيب ما ياكل ذرعانه. قال: اذلفن، اذلفن وراكن. وطعّنوا جنوب جمَلْهن بهالخناجر وانهج ياجملهن منحاش. عيّى لا يجاملهن، عيّى لا يصحب. وصبح التومان صباح، اهل ثلاثين بيت. وصار الكون بينهم وبينه وحصل بينهم ذبح.

وهذه سالفة أخرى من راوية آخر:

نزلوا الصبحي بقارة اسمَه هديبا وأكان عليهم جدعان ابن مهيد معه المْتباريه شيوخ عنزه سبعه، كلٍّ من هالشيوخ معه قومه وجدعان يكِفّهم كلهم. عَدَوا على شمر واعتلموا بهم شمر وعْقِدَوا اطناب البيوت ببعضه، عقدوا طنب بطنب لما اودَعَوَه مثل الحوطه وعقّلوا البل بوسط البيوت، تحصين لاجل ان البل ما تهج. قالوا: يالربع القوم هذي ما حنا لقانٍ لَه، لكن نبي نكز عليهم بنات يتوجّهَن لنا. واركبوا ثلاث بنات على ظْلَل وراحن يطلبن العفّه من جدعان، اخو قطنه. قال: من عندي معفٍّ عنهم. وتنابطوا شيوخ عنزه الآخرين، منهم بطيّن ابن مرشد، قالوا: يوم احرجنا شمر ما والله نعف عنهم الا نتقفّى إديم ما مْلكَوا بهالنقرة نتقفّاوه وناخذه. عاجاهم انت يابن مهيد وعَيّوا، عصوه. قال: يابنات، انا ابقهر القوم ياما تجن اهلكن تِثَنّن عندهم وتونّن وهم يدبّرون دبرتهم، ان بغوا يهوشون والا يهجون، والقوم ما والله تهذب بنت الحصان الا انا شايفكن محولات عند اهلكن. يوم اقبلن على اهلهن وهن ياقفن فوق الظلل وهن يزعجنّه حَدْوِه، يزغرتن. واركبوا يالصبحي وهم يطلعون على الخيل وهم يستديرون على البيوت يعرضون وقطّوا على خيلهم من ورا العرب وهم يقومون لك يبترمون على بيوتهم مثل ابترام الحنيش لين ما سمك العج وصل السما. وهم لك يلكدون على عنزه ويرفع الله يده عن عنزه.

وإذا أرادت قبيلتان أن تتصالحا وتنهيان حالة الحرب بينهما فإن شيوخ القبيلتين وزعمائها يجتمعون لإحصاء الخسائر من كلا الطرفين ثم **يتلادون الارقاب**، أي أن كل قتيل من هذا الفريق يقابله قتيل من الفريق الآخر، وهذا ما يسمونه **ملادا الارقاب** ويقول عنه عرب الجاهلية "باءوا بين القتلى" (عبيدة ١٩٠٥/١: ١٠٥، ١٠٧)، علما بأن الرؤساء والأشخاص النابهين لا بد أن يقابلهم من هم في وزنهم ومكانتهم، فلا يبوء الوضيع بالشريف ولا الفارس أو الكريم بالرجل الخامل. وبعد ذلك تدفع دية قتلى الفريق الذين ليس لهم مقابل من الفريق الآخر. وهذا ما يسمونه **حفر ودفن**، أي كأنهم يحفرون حفرة يدفنون فيها خلافات الماضي ويبدأون صفحة جديدة من العلاقات السلمية.

من يتفحص قصائد الشعراء الجاهليين وقصائد الشعراء النبطيين وما قالوه في وصف عدة الحرب والسلاح وفي وصف المعارك وتصوير المشاهد الملحمية سوف يلاحظ تشابها ملفتا للنظر فيما بينهم، مما يعني أن أساليب الحرب القبلية في بلاد العرب لم يطرأ عليها تغير يذكر منذ العصر الجاهلي حتى ظهور الأسلحة النارية

الحديثة في نهاية القرن التاسع عشر. ولقد مرت بنا في الصفحات السابقة بعض الأمثلة والشواهد الشعرية على ذلك، ولا يضير إيراد المزيد من هذه الشواهد للتوضيح وللتأكيد على الاستمرارية اللغوية والأدبية والثقافية بين الماضي والحاضر. فتراهم مثلا يعبرون عن هول المعركة وحرج الموقف وشدة الكرب بتقلص الشفتين ويبس الريق. يقول عنترة:

ولقد حفظت وصاة عمي بالضحا إذ تَقْلِص الشفتان عن وضح الفم

ويقول الأعشى:

وإذا ما الأكَسّ شُبِّه بالأر وق عند الهيجا وقل البصاق

ويقول ربيعة بن مقروم االضبي:

وسرب إذا غص الجبانُ بريقه حميت إذا الداعي إلى الروع ثَوّبا

ويقول ضيدان العارضي:

ونعمٍ بربعي طايلين اليمانِ يوم الشفِيّ يبّاس ما تلحق السن

ويقول عضيب ابن حشر:

والى لحقناهم والارياق يبّاس مركاضنا ما هوب هوز وتمانيع[1]

ويقول محمد ابن دهمان:

زبن المتلّي يوم الارياق يبّاس لى طار عن بيض الترايب حياها

ويقول محمد ابن هادي:

أنا حمى المظهور لى نشّف الريق ليا رمى المجمول بغطاه يومي

ويقول شليويح العطاوي:

وانا زبون الحرد ابو ضيف الله لى قصّف البرطم عن الشفاوي

ويشبهون القتلى في ميدان المعركة بالخشب. يقول مالك بن نويرة:

فأقررتُ عيني حين ظلوا كأنهم ببطن الإياد خشب أثل مسند
صريعٌ عليه الطيرُ تنتخ عينَه وآخر مكبولٌ يميل مقيّدُ

ويقول راكان ابن حثلين:

اذكر نهارٍ بالهليطه جزرناك طرحانكم مثل الخشيب متساوي

ويقول تركي ابن حميد:

دخّانها منقاد والعج ثارا كن الطلاح البايده حذف الازلام

ويقول شليويح العطاوي:

لكن جضع الزلم قدم وجيهنا مثل الخشب في وادٍ سناوي[2]

كما يشبهون الرماح بأشطان البئر. يقول عنترة:

يدعون عنتر والرماح كأنها أشطان بئر في لُبان الأدهم

ويقول المهلهل:

---

(١) **هوز وتمانيع**: أن تروم فعل الشيء فتتردد وتمتنع عنه وتجبن عن فعله.

(٢) **سناوي**: ممحل لم يصبه المطر.

كـــأن رمـــاحـــهم أشطان بئـــر بعـــيـــدٌ بين جـــاليـــهـــا جَـــرور

ويقول بركات الشريف:

لـكـن الـقـنـا مـن بـين ذولا وبـيـنـنـا كـــأرشـــيـــة بيـــرٍ طوالٍ نجـــاذبه

ويقول الزرعي العامودي:

شلفٍ تـعـــاقب مـــثل شطن القليبِ من جـــمّـــةٍ تنسف لوردٍ شـــحنهـــا[1]

ويبالغون في وصف شدة طعنة الرمح بأنك تستطيع لو نظرت من خلالها أن ترى ما وراءها. يقول قيس بن الخطيم:

طعنت ابن عـبـد القـيس طعنة ثائر لـهـا نفـذٌ لولا الشـعـاع أضـاءها

ملكتُ بـهـا كـفي فـأنْهَـرتُ فـتـقَـهـا ترى قـائمـا من خلفـهـا مـا وراءها

وتقول شاعرة عتيبية:

يفـداه ابن سـحـمـان سـقم الحـريب الـلـي نطـالـع ظَلْم مع درب شلـفـــاه

ومن المعاني التي يتفق فيها شعراء النبط مع شعراء الجاهلية إفلات المطرود من الطارد مثل قول دريد بن الصمة:

ولـولا جـنـان الـلـيـل أدرك ركـــضـنـا بذي الرمث والأرطى عـيـاض بن ناشب

ويقال أن عبدالملك بن مروان لما بلغ منشده هذا البيت قال "ليت الشمس بقيت قليلا حتى يدركه". ويقابله قول ذياب ابن غانم:

والله يالـولا الـلـيل كـد حـال دونـهم مـا يروح منـهم من يرد الشـهـايد

وقول شديد الحثري:

والـلـه يالـولا الـلـيـل عنـهـم حـدانـي مـا منـهم اللي ينثني في نجـيـبـهـا

ويصورون ذهول النساء سترهن من هول ما يرين إذا حمي وطيس المعركة بين الفريقين المتحاربين. يقول الحطيئة:

إذا الخَـفِراتُ البـيضُ أبدت خـدامـهـا وقـامت فـزالت عن مـعـاقـدِها الأُزُر

نحـامي وراء السـبي منكم كـمـا حـمت أسـودٌ ضـوارٍ حـول أشـبـالهـا هُـصُر

ويقول قيس بن الخطيم:

صـبـحناهم شـهـبـاءُ يبـرق بيـضُـهـا تبين خـلاخـيلُ النسـاء الهـوارِبِ

ويقول محمد ابن هادي:

وان لجلج المجـمـول فـوق الحني عـوج ذِهْل الغطا واهل الرمك قـام ينخـاه

ويفتخر الفرسان بحمايتهم لنساء القبيلة إذا اشتد القتال وزاغت عقول الجبناء. بقول عبدالله بن عنمة يرثي بسطام بن قيس من بني شيبان:

ومـــقـــدامُ إذا الأبطال خـــامت وعـــرّد عن حليلتـــه الحليل

ويقول الحطيئة في تفضيله علقمة بن علاثة على عامر بن الطفيل:

وأشـجع في الهـيـجـاء من ليث غـابةٍ إذا مـســتـبـاةٌ لم تـثق بحليل

وهذا يذكرنا بقول مشعان ابن هذال مفتخرا:

---

(١) شحنها: ملأها وأحاط بها.

وان هجّ عِشّيق البنيّ الهوافي أقفى وخلّى عورته ما سترها
وردّتها حوضٍ من الموت صافي وارويت انا عود القنا من حمرها

وعلى الطرف الآخر نجد الفرسان يفتخرون بأنهم كانوا السبب في تطليق النساء من بعولتهن بعدما قتلوهم، والبعض منهم يشير إلى أنهم بفعلهم هذا أنقذوا الزوجة من زوجها الذي لا تشتهيه ولا تريده. يقول خفاف بن ندبة:

ومعشوقة طلقْتُها بِمِرَشّة لها سَنَنٌ كالأتحمي المُخَرَّقِ
فباتت سليبا من أناس تحبهم كئيبا ولولا طعنتي لم تطلقِ

ويقول طرفة:

وكارهة قد طلقَتْها رماحُنا وأنقذنها والعين بالماء تذرف
ترد النحيب في حيازيم غُصّةٍ على بطل غادَرْنَه وهو مزعف

ويقول النابغة:

يارب ذات خليل قد فُجعن به ومُوتمين وكانوا غير أيتام

ويقول الفرزدق:

وذات خليل أنكحَتْنا رماحُنا حلالا لمن يبني لها لم تُطَلّق

ويقول ساجر الرفدي:

فوق الرمك ومجاذبات الخنانيق كم طامحٍ فكّوا حْبالٍ وراها

ويقول مقبول ابن هريس من الشلاوى:

كم جادلٍ من عقب ربعي شفيّه يزل راس الحول ما ابرت حْرورها
تبكي على اخوها وابوها ورجلها خلّوه ربعي من عشايا طيورها

ويقول الفديع ابن هدلان:

كم خفرةٍ قد حرّمت للدلالِ لبست سوادٍ عقب لذّة طربها